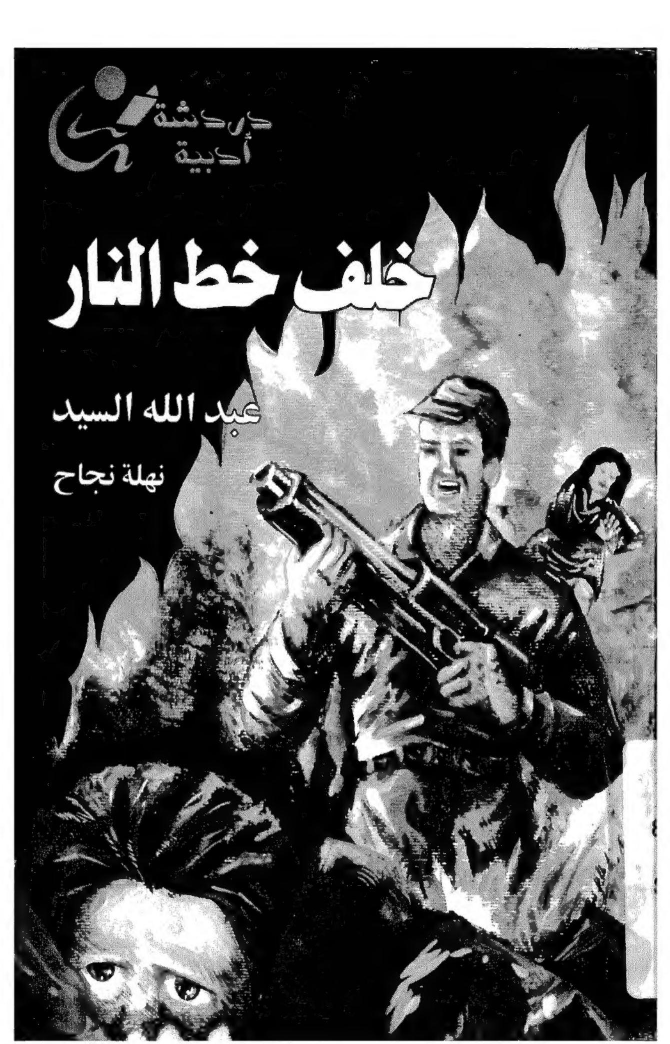

دردشة
أدبية
خلف خط النار
عبد الله السيد
نهلة نجاح

خلف خط النار

قصة : عبد الله السيد

لوحات: نهلة نجاح

مراجعة لغوية: د محمد سرى



١٧ ش الدكتور السبكى - الدقى - الجيزة - مصر

ت :٣٣٦٣٣٢٣ - ٣٣٦٣٣٢٤ فاكس ٣٣٦٣٣٢٥

جولة أولى

كان يشعر بالضيق وهو يعبر هذا المستنقع مع فرقته المصرية، حيث كانت رائحة المياه الراكدة تكاد تسد أنفه ويشعر وكأن هذا الماء الراكد القذر -الذى غاص فيه حتى وسطه- يأكل لحمه وينهش جسده، وزاد من توتره تلك الحشرات التى تلدغ وجهه وذراعيه وهو رافع يديه بالسلاح إلى أعلى فوق رأسه.. حيث لم يكن له حول ولا قوة، تجاه تلك الحشرات المؤذية..

كل ذلك لم يمنعه من التفكير فيما آل إليه حاله الآن.. كيف حدث هذا؟! لقد جاهد كثيراً..كثيراً جداً،

حتى يحصل على دبلوم التجارة، كان كل أمله أن يخرج من قريته الصغيرة إلى الدنيا.. إلى العاصمة.. إلى أم الدنيا، لم يكن لينصت إلى رأى والده أن يظل بالقرية مثل أخوته لرعاية الأرض، كان أثقل شىء على نفسه أن يصبح فلاحاً مثل بقية الأسرة.. كم كره الجلباب، تمنى أن يكن موظفاً.. له قيمة.. يرتدى الملابس الحديثة.. كلا.. لا يمكن أن يستمع إلى كلام أبيه وإخوته.. لقد تعلم.. تعب فى الدراسة ومن حقه أن يعيش.. يتطور.. يستمتع بثمرة تعلمه وجهده. كان يعد الأيام حتى تنتهى الدراسة.. والأمل يحدوه بأن يكون موظفاً يعيش بالعاصمة.. ازداد لسع الحشرات لوجهه.. اعاده إلى واقعه.. ماذا هو الآن؟ ما كاد أن يحصل على الدبلوم.. ما استطاع أن يستمتع بحلمه الكبير، حتى تم تجنيده بالجيش.. لماذا؟.. لماذا لم يتركوه يحقق حلمه؟.. ويستمتع بثمرة مجهوده؟ هكذا كان تفكيره وهو يعبر المستنقع.. فى شدة الغيظ.. تمنى أن تصيبهم قذيفة أو صاروخ يقضى عليهم وعلى كل هذه الحياة العسكرية القاسية.. أفاق على صوت أزيز شديد وضوء قوى يقترب فى السماء.. ما هذا؟ أترى أن الله قد استجاب لدعائه؟.. كلا.. إنه لم يقصد ذلك ..

"يا رب.. لا أريد أن أموت.. لم أكن أقصد ذلك.. يا رب"

ارتعدت أوصاله فى رعب. لم تكن روح الجندية أو الاحساس بعظمتها قد توغلت فى أعماقه بعد، لذلك

كان رعبه أقوى من أحلامه.. أقوى من أى شىء آخر.. أغمض عينيه و.. تم الانفجار.. ظل مغمضاً عينيه.. سمع صُراخاً.. ثم سكن كل شىء خاف أن يفتح عينيه.. ربما يكون قد مات.. ربما أو ربما مازال حيا.. صمت كل شىء حوله.. مازال خوفه من أن يفتح عينيه قوياً.. ربما مات.. أكيدٌ مات وتمزق جسده الآن.. ربما هو الآن فى طريقه إلى جهنم.. نعم.. جهنم.. لقد عصى والديه.. لم يسمع كلامهما.. تمنى أن يكون حياً حتى يعود ويقبل رأس أبيه وأمه.. فقط تمنى ألا يكون قد مات فى هذا المستنقع القذر.. لن يعرف إلا إذا فتح عينيه.. أهو حى أو ميت.. على مهل وبرعب شديد فتح عينيه قليلاً.. رأى المكان حوله.. جثث.. نيران.. فى كل مكان.. تحسس جسده.. لا شىء.. لا يشعر بأى ألم.. إلا وخزَ الحشرات.. إذن فإنه لم يمت.. هؤلاء قد ماتوا.. إنه حى.. الحمد لله.. لم يمت.

نادى بصوت مرتعش.. نادى على كل زملائه.. ثم رفع صوته ما من مجيب.. لا يمكن.. هل يمكن حقاً أن يموت الجميع إلا هو؟ حمل سلاحه على كتفه وأخذ يخوض فى المستنقع بسرعة بأسرع ما يمكن أن يكون كلما انكفأ فى الماء الموحل نهض مرة أخرى.. لابد له من الابتعاد عن هذا المكان.. عن هذه المقبرة القذرة التى مات فيها كل زملائه ألقى بجسده إلى الأرض.. ظل راقداً مدة طويلة لا يدرى كم من الوقت قد مضى. لم

تعد الحشرات تؤلمه بوخزاتها.. ظل يبكى ويبكى بشكل هيستيرى شديد.. خوفاً؟ ربما.. سعادة بنجاته؟ ربما.. المهم أنه نجا.. لا لن يعود إلى الحرب مرة أخرى.. اتخذ قراراً وهو راقد يحيطه الوحل من كل جانب.. يجب أن يهرب من هذا الجحيم لن يعود إلى الحرب.. لن يعود إلى الجيش، لن يعود إلى الموت.. ليس "كل مرة تسلم الجرة".. والحظ لا يأتى مرتين.. لن يعرف أحد أنه قد هرب.. الجثث احترقت غاصت فى وحل المستنقع.. معظم الجثث قد تفحمت هذا هو ما هداه إليه فكره المريض فى تلك اللحظة "النجاة بحياته".

كانت صحراء سيناء فى هذا الوقت تعج* بالجثث والقتلى وكثير من الدبابات والمصفحات المحترقة.. دوريات اسرائيلية تجوب المكان.. هنا وهناك.. كانت كل خطوة فى سيناء تنبىء بما حدث فى الخامس من يونيو.. هرجٌ* كثير.. لا شىء يهم.. كانت كل أرض سيناء تبكى فى ألم.. فى دهشة.. لم تكن الرمال أو الجبال أو الوديان لتصدق ما حدث.. كان يتظاهر بالموت إذا اقتربت منه دورية اسرائيلية.. الجثث كثيرة فى كل مكان.. فإذا ما ابتعدت الدورية.. أسرع هارباً.. كان الظلام على وشك الهبوط.. ليكمل ملحمة الظلام

- تعج: تمتلأ

- هرُج: الهرج هو الفتنة والإختلاط والمقصود هنا عدم تبين الحقيقة والرائح من الغادى.



فى صحراء سيناء فى ذلك الوقت.. لم يكن يشغل فكره فيما حدث أو أهميته.. أو حجم المصيبة التى أصابت جزءا عزيزا من الوطن منذ جاء إلى أرض سيناء وهو رافض ولماذا رافض؟.. لأنه لم يكن قد استوعب بعد القيمة العظيمة فى معنى الوطن.. النصر.. الأرض.. لم يكن يشغل فكره إلا هو..

فى محاولة منه لعبور واد بين ربوتين فاجأته دورية إسرائيلية كبيرة لم يجد فكاكاً من أن يصعد إلى إحدى الربوتين.. تلفت يميناً ويساراً.. أين يختبىء؟.. أين يختبىء؟.. فجأة وجد أمامه فتحة فى الصخور.. إنها مغارة.. إن التوفيق يلازمه فى كل خطوات هروبه.. هذا ما خيل له.

دخل إلى المغارة فى لحظة اقتراب الدورية الإسرائيلية.. اصطدم بجسم ما وهو يهرول زاحفاً داخل المغارة. سمع صرخة مكتومة.. "من هنا؟" صاح برعب شديد.. سمع صوت طفل يقول" إنه مصرى.. يا أمى.. هذا مصرى لا تخافى" دقق النظر فى الظلام.. استطاع استكشاف المكان قليلاً.. إنها مغارة صغيرة.. ضيقة.. توجد بها امرأة تبدو كما لو كانت بدوية.. ومعها طفل فى حوالى العاشرة أو الحادية عشر من عمره.. كان وجه الطفل متهللاً حين رآه.. ولكن الأم كانت مقطبة الجبين وفى حالة ممزوجة من الرعب والحزن والغضب:

- "من أنت؟.. هل أنت مصرى يا سيدى؟ طبعاً هذا واضح من ملابسك.. أنا "عمَّار" وتلك أمى نحن من قرية قريبة.. هاجمها الإسرائيليون.. هربنا.. كنا فى الطريق إلى أهل أمى فى الصحراء.. نحن بدو.. أردنا قضاء الليل هنا بعيداً عن دوريات الإسرائيلين "كان الطفل يتكلم بسرعة غريبة وفرحة لرؤيته الجندى المصرى.. البطل؟!".. أضاف الطفل قائلا:

- "اهدئى الآن يا أمى لن نخاف شيئاً بعد ذلك.. هذا جندى مصرى.. بطل.. سيدافع عنا.. سيقتل كل هؤلاء المجرمين.. اهدئى لا تخافى يا أمى".

أسعده..؟ بل أحرجه..؟ بل أسعده كلام الطفل عنه ولكنه تشاغل عنه بالبحث خارج المغارة.. اسقط فى يده عندما رأى الدورية قد توقفت.. قررت أن تُعسكر فى هذا المكان بالذات.. ماذا؟

هل تخلى عنه الحظ فجأة؟ ما هذا الحظ العاثر.. كيف سيتمكن من الخروج الآن؟ ليس له إلا البقاء مع هذه الأسرة البدوية.

إلتصق الطفل به جداً.. متفحصاً* فى وجهه بإجلال* وإكبار شعر بالحرج قال للطفل متسائلاً:

- متفحصاً: فحص بإهتمام

- بإجلال: بتعظيم ويقال (ماله دقٌّ ولا جِلٌّ) بمعنى ما له دقيق ولا جليل وهو جارٍ مجرى المثل.

- "ماذا بك؟ .. ماذا تريد؟.. لماذا تنظر إلى هكذا؟!"

أجاب الطفل:

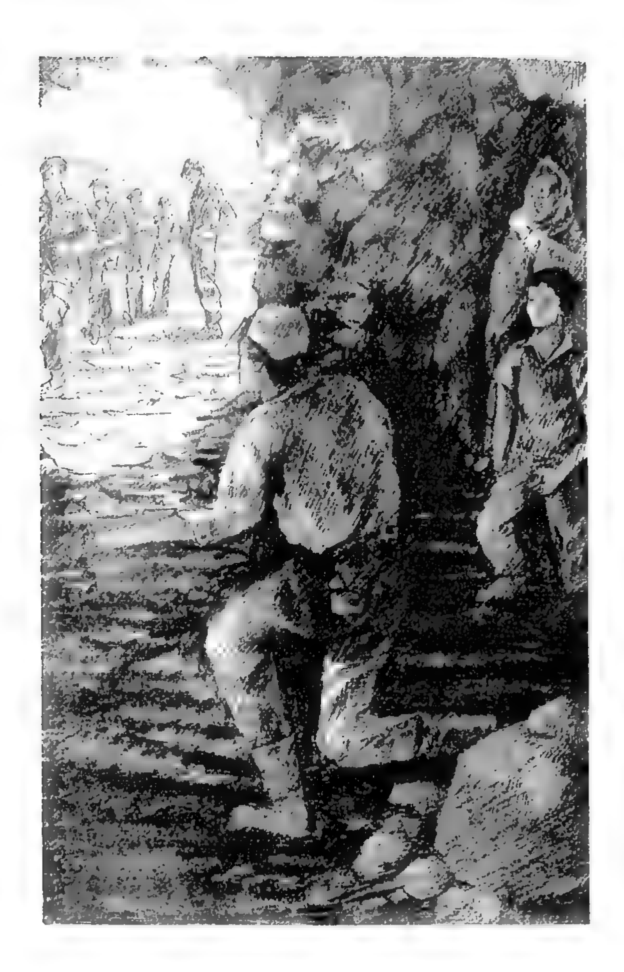
- "لا شيء.. إننى سعيد بوجودك معنا.. ستحكى لى اليوم عن بطولاتك فى الحرب.. اليس كذلك؟"

أجابه بإقتضاب*:

- أَجَلْ..أَجَلْ*.. ولكن ليس الآن."

ألح الصغير.. ألح بشدة.. فأسند ظهره إلى الجدار.. وجلس ونظر إلى سقف المغارة.. وتخيل حلماً.. عاش حلماً غريباً عنه.. أصبح شخصية أخرى.. لم يمر وقت طويل حتى تقمص تلك الشخصية الجديدة تماماً.. الغريبةعن شخصية.. إنه الآن بطل.. هاها.. كيف؟ كيف يكون بطلاً؟.. أغمض عينيه.. وصار ببساطة بطلاً.. حكى.. حكى حكايات ألهت* مشاعر الصغير..: "واجهنى مرة أربعة جنود إسرائيليين.. بمدافعهم الرشاشة.. لم يكن معى سلاح إلا سكين إستطعت به أن أقتلهم واحداً واحداً.. كنت أتفادى طلقاتهم بمهارة.. وصلت إلى الأول.. ففزت عليه من أعلى الجبل.. ذبحته ثم الثانى طرت فى الهواء عالياً.. بقدمى

- بإقتضاب: القضب: القطع. الإقتضاب الإختصار ويمكن فى موضع آخر أن يحمل معنى إرتجال الكلام.
- جَلْ: جواب مثل نعم يقال فى تصديق الكلام.
- ألهت: شَغَلَتْ.



هبطت على صدره.. قتلته. أما الثالث. تدحرجت على الأرض عدة مرات.. وصلت إلى قدميه..

وهكذا بمرور الوقت ملأه الحماس.. لم يكن يشعر أنه يكذب.. لقد كان الأمر يشبه حُلُماً.. حُلُمٌ يقظة عاش فيه.. حقق بطولات عجيبة في خياله.. الأسرى المصريون.. لقد كانوا أربعين أسيراً إستطعت وحدى الهجوم على الوحدة الإسرائيلية وفك أسرهم"

الحماس.. دب الحماس فى أوصاله.. نسى من هو.. صار هذا الجندى البطل.. الصغير فرح جداً يقفز عالياً.. يهلل..:

– تلك هى البطولة يا أمى.. هذا هو الجندى المصرى.. البطل."

الأم مازالت مقطبة الجبين.. تنظر إلى خارج المغارة فى توتر.. هنا الواقع هنا الموقف الحرج الذى صاروا فيه.. العدو فى الخارج على بعد أمتار منهم.. مازال (بطلنا) يحكى.. ويحكى.. ويحكى.

. "عشر دبابات للعدو.. فجرتها وحدى.. لم يهزمنى أحد حتى الأن.. اننى بطل.. الشجاعة هى أهم صفاتى.. القوة.. الوطنيه.. الجندية.. السلاح.. النصر.. العدو.. الجبان.. لقد قهرته.. انتصرت.. إنتصرنا"

هكذا.. صار بطلاً من كلام.. حديث.. حكايات ملفقة.. ولكنه كان يستلذ بها.. عاش فيها بكل

خلجاته*.. صدَّق نفسه.. صدقه الصغير.. ومازال العدو يرقد خارج المغارة.. والأم فى حالتها المتوترة.. ترقب.. وتعرف وتحيا الواقع.. المرير.

استيقظ على جَلَبَة*.. أين؟ داخل المغارة.. لم يشعر إلا والأيدى الثقيلة تمسك به من قفاه وتسوقه.. خارج المغارة.. الطفل يبكى ويصرخ ويتوعد ويركل الجنود الإسرائيليين بقدمه الصغيرة فى سيقانهم.. الأم فى حالة رعب شديد.. كلا كان هو أكثر رعباً منها.. فقط حينما أفاق على الواقع.. كان جسده ينتفض.. لم يقو على الكلام.. أسنانه تصتك*.. صوته واهن ضعيف.. مرتعش "أرجوكم.. لا تقتلونى.. أريد أن أعيش" لم يستمع أحد لصوته الذى كان أضعف من أن يسمع.. ما زال الطفل يصرخ فيهم ويتأرجح مقاوماً بين أيديهم:

- "يا كلاب.. أيها الجبناء.. هذا جندى مصرى معنا.. سيقتلكم جميعاً.. إننى أحذركم أيها الجبناء..

كان الصغير يسقط وينهض مقاوماً. وكان الجندى

- خلجاته: حركاتة واضطراباته. والمقصود ما يجيش فى صدره من إنفعالات وما يدور فى رأسه من أفكار.
- جَلَبَة: صوت مختلط أى غير متبين فيه طبيعة الصوت أو صاحبه.
- تصتك: يخبطُ بعضها بحركة فى رعشة وإهتزاز.

يسقط ويرفع متعثراً.. لم يتمالك نفسه حتى الآن من هول المفاجأة.. لقد تم أسرهم جميعاً.

في غرفة القائد.. قائد فرقة العدو.. وقف الثلاثة.. بدأ يستوعب.. شيئاً فشيئاً ما يحدث له.. إنه الواقع .. انه الآن أسير.. ليس في ذلك شك.. لابد أنهم سيقومون بإطلاق الرصاص عليه.. حتماً.. سيفعلون ذلك.. ابتسم قائد الفرقة الإسرائيلي.. في وجوههم واحداً تلو الآخر.. ركله الصغير ضحك القائد بملء فيه.. ضحك باقي الجنود.. تفرس*في وجه الجندي المصري .. مبتسماً متسائلاً:

- "هذا ولدك؟"

لم يستطع أن يجيب.. صاح الصغير مرة أخرى:

- "يا كلاب.. هذا جندي مصري.. هذا بطل.. سيقضي عليكم.. أطلقوا صراحنا فوراً..

أجاب القائد: "هذا؟.. هذا الشيء التافه سيقضي علينا؟"

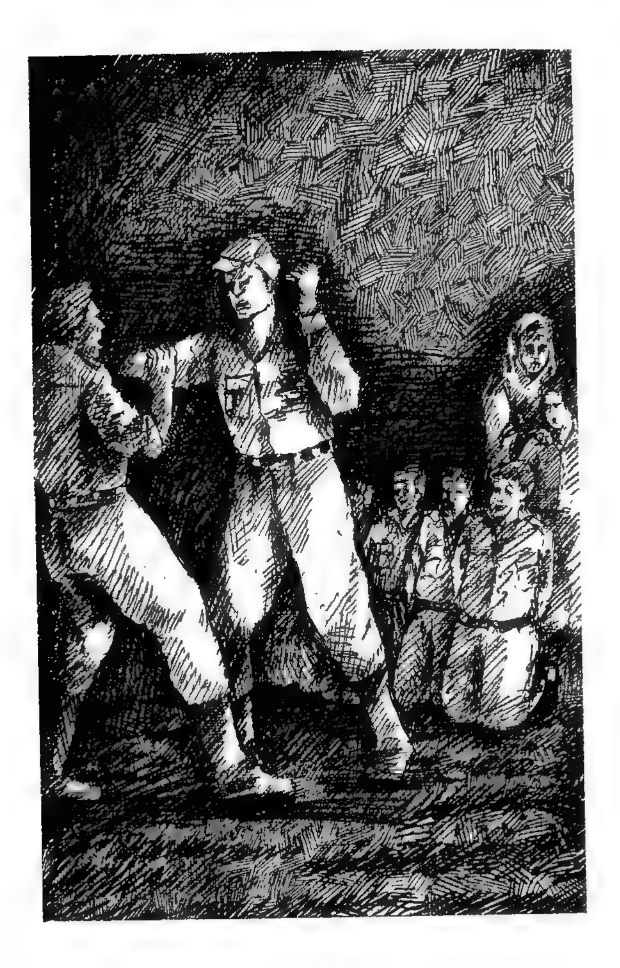
قال الجندي في خجل.. وفي صوت واهن:

- "أرجوك.. لا تسبني أمامه"

قطب القائد عن جبينه واحمرت عيناه وقال:

- "ماذا تقول؟ هل هذا صوت رجل؟ مالك هكذا..

- تفرس: نظر وتثبت.



تكاد تموت رعباً.. هل أنت خائف؟"

فأجابه الجندى متوسلاً:

- "أقول لك أرجوك لا تسبنى أمامه.. لا أحتمل ذلك أرجوك."

فأجابه القائد.." إذن أرنى كيف تحتمل ذلك" ورفع يده.. وبكل قوة وحقد صفع الجندى على وجهه.

بصوت رهيب.. إرتج به المكان حتى أن الجميع فقد اتزانه للحظات.. صرخ.. صرخ الجندى بصوت.. لم يكن يعلم من أين جاء أو كيف حتى أنه شعر وقتها كما لو كان الصوت ليس صوته.. بل صوت وكأنه الأرض.. الطين.. أبوه.. أمه.. أخوته.. الترعة.. النيل.. الأهرام كل ذلك صرخ.. كانت صرخته مدوية.. قوة هائلة انهالت عليه رفع يديه إلى أعلى.. مزق بقوة رهيبة الحبال عن يديه.. حتى أنها نزفت الدماء.

مزق الحبال عن يديه.. ذَهَلَ* الجميع.. صوت لا يمكن أن يكون قد صدر عن آدمى.. كما لو كان صوت التاريخ نفسه.. أفاق.. أفاق.. وكأنه لم يكن موجوداً من قبل.. كأنه ولد الآن فقط.. لم يقبل ولن يقبل.. شخص آخر من أعماقه ظهر فجأة.. أزاح القديم.. ولد الآن فجأة

- ذهلَ: ويقال ذَهَلَ أيضاً "بكسر الهاء وفتحها" نسوا حالهم السابق الذى كانوا فيه وغفلوا عنه "وهو حال التجبُّر وموقع القوة".

عملاق آخر.. رهيب.. كلا.. لن أقبل..

لحظات وتمالك الإسرائيليون أنفسهم.. انقض الجميع عليه حوالي عشرة جنود انقضوا عليه وأعادوا قيد يديه الداميتين. ارتعش صوت القائد.. تكلم بصوت واهن:

- " هيا.. احبسوهم وشددوا الحراسة عليهم" كان العرق يتصبب من جبينه من هول المفاجأة.

بصوت عميق.. قوى.. رزين×.. منذر.. مرعب.. قال الجندى:

- "أنت.. أنت أيها الكلب.. أنت أيها القائد.. تعال هنا لحظة.. أريد أن أطلب منك طلباً واحداً"..

تقدم منه القائد وكل فرائصه ترتعد:

- "ماذا تريد يا.. يا مصرى؟"

قال الجندى وبنفس الصوت العميق الرزين.. المرعب:

- "أرجوك.. لو سمحت أرجوك أن تقتلنى الآن."

فتساءل القائد: "ولماذا؟.. لماذا تريدنى أن أقتلك؟.. أنت أسيرى."

فأجابه وهو ينظر فى عينيه بنظرات صقر جريح جعلت القائد يتمنى لو هرب الآن من أمامه.. لو لم يأسره.. هو بالذات:

- "لأنك إن لم تقتلنى الآن.. صدقنى.. سأدمر هذه الوحدة بالكامل.. وسأقتلك.. أعدك سأقتلك بيدىّ هاتين."

لم يجبه القائد بل تركه وانصرف.. والحقيقة أنه هرب من هول تلك النظرات الثاقبة من عينى الجندى المصرى.. الذى يشعر الآن أنه شخص آخر غير من أسروه منذ قليل .. شىء ما ينذر بالخطر.. قال القائد مرة أخرى وهو يخرج متحاشياً* عن نظرات الجندى شددوا الحراسة عليه.. وهاتوا المرأة البدوية إلى حجرتى.. كان هناك شىء ما فى أعماق القائد ينذر بالخطر.. شىء ما فى أعماقه يعلم أن الجندى المصرى.. سينفذ وعيده..

نظر الصغير إليه.. كان هو الآخر يشعر بالرعب من صرخته الرهيبة.. حتى أنه كاد يبكى فزعاً وقتها.. نظر الجندى فى عينى الصغير قائلاً : "لا تخف لن أدعهم يمسون أمك بسوء".

ثم أشاح وجهه بعيداً وأردف "كلا.. لن أدعهم يمسونها بسوء."

ساقوهما إلى إحدى السيارات اللورى المعدة خصيصاً كسجن واغلقوا عليهما بابها الحديدى.. بسرعة.. اقترب الجندى من الصغير واسندا ظهريهما

- متحاشيا عن: فعلها حَوَش وتحاشى عن تفر وابتعد.

لبعضهما.. وعمل على فك قيد الصغير.. ثم فك الصغير قيده ثم قال: "والآن ما العمل" قفز الجندى إلى أعلى سقف السيارة وأمسك بيديه حديد السقف العرضى وعلق قدميه كذلك.. الآن أصبح كما لوكان منبطحاً على السقف فوق النافذة تماماً ثم طالب الصغير أن ينادى على الحارس نظر الصغير من النافذة وبصوت هامس قال:

- "أيها الحارس.. أنت أيها الحارس."

جاء الحارس قائلاً: "ماذا تريد؟"

فأجابه: "هل تعلم؟.. لقد هرب الجندى المصرى."

لم يصدق الحارس وقال مبتسماً "هذا غير معقول" فقال له الطفل فى تهكم: "إن لم تكن تصدقنى انظر بنفسك."

فقال الجندى فى شك وهو ينظر من النافذة متفحصاً داخل السيارة "هذا غير ممكن.. أين هو؟"

أسرع الجندى إلى باب السيارة وفتحه مسرعاً إلى الداخل وهو يتمتم "مستحيل.. غير ممكن.. مستحيل."

بحث داخل السيارة لم ير إلا الطفل وهو ينظر إليه مبتسماً فى شماته. لم يكد يسأل أين هو.. أين ذهب... حتى قفز إليه الجندى المصرى قائلاً:"ها أنذا"...

وفى لحظة كان قد قضى عليه.. أخذ سلاحه وذخيرته وقفز إلى أسفل السيارة ومد يده ساعد الصغير على النزول قائلاً "هيا بسرعة" زحفا أسفل السيارات حتى نهاية المعسكر أجلس الطفل خلف ربوة صغير "انتظر هنا.. سأعود حالاً جلس الطفل.. لم يكن يشعر بالخوف بالمرة.. كان يشعر انه فى أمان.. أمان تام.. لحظات وعاد الجندى المصرى وهو يسحب خلفه حقيبة كبيرة مملؤة بالذخيرة والعتاد قائلاً:

- "اسمع.. يجب أن تساعدنى.. أنت رجل الآن.. هل تفهم؟" قال الصغير فى فرح : "أنا".. فوجىء بالجندى يتمتم" "وأنا كذلك".

أخرج الجندى بعض معدات التفجير.. وتسلل بين السيارات ألُغَمَ كل السيارات القريبة التى فى أول الوادى.. ثم بعض السيارات التى فى آخر الطريق.. حتى يمكن أن يسد على الفرقة الطرق وتصبح محصورة.. تحت رحمته.. عاد إلى الصغير قال له:

- "اسمع أتريد أن تكون بطلاً.. هيا.. فجر أنت بيديك الديناميت هيا.. أمسك المفجر.."

أمسك الصغير المفجر.. وبسعادة شديدة فجر السيارات الملغومة.. قال المصرى : "لقد سجلت الآن اسمك فى التاريخ.. أنت الآن بطل"..

الآن أصبحت الفرقة الإسرائيلية محصورة..

محاصرة.. صعد فوق الربوة الغربية والصغير معه كظله.. كان الجنود يهرولون فى فوضى شديدة هنا وهناك.. من أعلى الربوة.. أطلق وابلاً من الرصاص حصد منهم الكثير.. إنهالت عليه القذائف والرصاصات بشكل مكثف وشديد أسرع الخطى وهرب.. إلى الجهه الأخرى أطلق عدة قنابل يدوية إلى الموقع.. الصراخ من كل جانب الرعب والهرج أصاب الفرقة.. أين هو؟.. أين هم؟.. كم عدد المصريين الذين يهاجموننا؟.. لابد أ نهم كتيبة..

"إنتظرنى هنا.. سأذهب لإحضار أمك".. قال الجندى للصغير بعد أن أدخله إلى المغارة التى كانوا فيها من قبل.. "لا تخف أنت هنا فى أمان" صاح الصغير معترضاً "كلا.. أريد أن أكون معك.. لابد أن أحارب معك لن أجلس هنا مكتوف الأيدى" لم يجد الجندى فائدة من محاولة إقناع الصغير.. إنه لم يعد صغير.

كان ضوء القمر الواهن يظهر الأمكنة بالكاد.. تسلل الاثنان تحت إحدى السيارات "والآن انتظرنى لحظة" وزحف خارجاً إلى أن وصل إلى جثه أحد الجنود اليهود.. إرتدى ملابسه بسرعة.. لوث وجهه بالدم.. وضع ضمادة* على فمه وأمسك الصغير وقيده.. ربط يديه خلف ظهره.. وقاده إلى وسط المكان.. وضع يده

- ضمادة: عصابة تعنى ما يعصبُ أى يشد والمقصود أنه شدَّ على وجهه وغطاه بغطاءٍ حتى لا يُعرَف.

على فـمه كـأنه مـصاب.. قـابل بعض الجنود همـهم*
بكلام غير مفهوم.. واشار إلـى الصغير.. (الأسير) أشار
له الجنود إلى مكان أسـر أمه.. إذن فـقد نجحت خـطته
سـحب الصغـير بقـسوة مـفتـعلة.. طرق باب سيـارة
السـجن نظر إليه الحـارس الداخلـى من الداخل.. أشـار
إليه أن يفتـح.. وأشار إلى الصغير.. تهـلل وجه الحارس
وتكلم بـالعـبـريـة.. لم يفـهم مـنه إلا أنه سـعـيـد
بالقبض على الصغير.. فتح الحارس الباب.. دخل الاثنان
سأله الحـارس بالعبـرية.. فهم أنه يسـأله عمـا أصاب
وجهه وفمه لم يجبه.. أمسك الحارس الصغير.. وألقى
به بجـوار أمـه تمتم الصـغـيـر لأمـه: "لا تخـافى..لقـد
حضرنا لإنقاذك."

فى لحظة كالبرق كـان الجندى المصرى قد انقض على
الحـارس وقـضى عليـه.. صـرخت الأم.. قـال لهـا "هيـا
بسرعـة.. لا تصرخى لابد من الخروج من هنا.. ألبسـها
ملابس الجندى اليـهودى.. قادا الصـغير أمـامهمـا حتى
عبـرا المكان.. إلى السيارات المحتـرقة.. بسرعة كـانوا قد
اختـفوا خلف الدخان.. ثم صـعدوا إلى الربوة. الآن هم
فى أمان قالت المرأة:

- "الحمد لله.. هيا.. هيا بنا نهرب من هنا بسرعة"

فأجـابها الجندى: "إهربـا أنتما ولـكنى عندى مهـمة

- همهم: تكلم كلاماً خفياً. يسمع ولا يفهم محصوله.

أخيرة لابد من انجازها"

فقال الصغير : "ما هى؟ أنا لن أتركك تذهب وحدك.. قل لى ماهى؟"

قال الجندى :"هذا شأنى أنا.. إنه ذلك القائد الذى صفعنا حين تم أسرنا.. لن أتركه.. لقد وعدته.. أنا لن أخلف وعدى معه أبداً" وقفت الأم قائلة: "نحن معك لن نترك من صفعنا.. نحن معك" نزل الجميع مرة أخرى.. خلعت الأم ملابس الجندى الإسرائيلى. قادها الجندى المصرى مع ولدها قالت هامسة: "أنا أعرف أين القائد إنه هناك فى هذه السيارة بين هؤلاء الجنود.. إنهم ثلاثة جنود.. سأقتل أنا الأول وأنت عليك بالاثنين الآخرين."

قال الصغير معترضا:"وأنا؟"

أجابه الجندى المصرى "أنت ستشغل القائد.. أسرع باكياً كأنك تبحث عن أمك...هيا.. هيا.. لا تخف."

نظر الطفل إليه فى اعتراض "لست خائفاً". أسرع الصغير فى اتجاه القائد باكياً بصوت مرتفع كأنه يبحث عن أمه إتجه القائد إليه مع الجنود الثلاثة هاجمهم الجندى المصرى والأم من الخلف.. وهكذا فى لحظة تم القضاء على الثلاثة.. أسرع القائد وأخرج مسدسه محاولاً اصابه الجندى المصرى.. ضربه الصغير بالحذاء فى ساقه بأقصى قوته.. صرخ.. قفزت

الأم إليه ألقت به أرضاً.. أسرع المصرى وقيده بسرعة.. وضعت المرأة وشاحها* حول فمه.. تم شل حركته تماماً.. سحباه إلى أعلى الربوة.. مازال الجنود الإسرائيليون يحاولون إخماد الحرائق.. وإفساح الطريق لفك هذا الحصار طالب الجندى المصرى المرأة وولدها بسحب الأسير إلى المغارة.." أين أنت ذاهب أجابهم "سأحضر هويتى*".. وعاد إلى أسفل السيارة التى إرتدى تحتها ملابس الجندى الإسرائيلى.. وهكذا إرتدى ملابسه المصرية.. وإسترد هويته*.

فك الجندى المصرى الكمامة عن فم القائد فى داخل المغارة قائلاً :

- "لقد وعدتك.. وأنا لن أخلف وعدى معك.. ابداً"

تمتم القائد فى رعب: "أرجوك لا تقتلنى.. أنا أسيرك"

هلل الصغير وظل يصفق ويصيح مقلداً القائد "أرجوك لا تقتلنى.. لا تقتلنى"

قال الجندى.. : "إن لى دين عندك.. ولكنى للأسف لن

- وشاحها: الوشاح: نسيجٌ عريض مُرصَّعٌ بالجواهر تشده المرأة بين كتفها ووسطها والآن يطلق على نسيج يوضع فى هذا الموضع وعليه زينة زخرفة أو زركشة.

- هويتى: الهوية هى ما ينبت به الإنسان إسمه ونسبه إلى أبيه وجده وجد جده. وقد تكون ما يُتَعَرَّفُ به إلى الإنسان عموماً من ملابس وصور وأوراق. "والكلمة مُوَلَّدة".

أسدده لك وحدك.. فأنت لم تعطه لى فى مغارة ولكن بين جنودك.. لذلك للأسف عليك أن تنتظرنى.. حتى أسدد دينى فى احتفال عظيم "وخرج الجندى المصرى مسرعاً

لعدة ساعات.. كانوا فى المغارة يسمعون صوت طلقات وانفجارات متقطعة.. وقرب الفجر.. فوجئوا بالجندى المصرى وقد عاد وهو يسوق أمامه بالسلاح خمسة جنود إسرائيليين مقيدين وبادر القائد قائلاً "آسف أيها القائد.. لم أستطع جمع العدد الكافى للاحتفال فقد فضل معظم رجالك الهرب أو الموت.. فأرجو أن تعذرنى والآن انهض.. تعالى هنا."

وقام الجندى المصرى بفك قيد القائد صاحت به الأم:

- "ماذا تفعل؟"

فأجابها: "إن سيادته صفعنا ونحن أسرى ولكنى سأرد له الدين وهو حر.. والآن يا سيدى التفت إلىّ."

التفت القائد إليه فإذا به يصفعه.. بقوة أدت إلى سقوط القائد إلى الأرض من شدة الصفعة.. وقال له المصرى "انهض.. تعالى تقدم إلىّ.. ليس معى سلاح.. لقد وعدتك.. بيدى هاتين"

ونشب عراك بين الاثنين فما لبث الجندى المصرى أن ألقى القائد إلى الأرض.. مرة.. ثم أخرى.. وأخيراً أمسك برقبته.. وقام بتحطيمها وهو يصيح "من أجلك يا

أبى.. من أجل الطين المصرى.. من فلاح مصرى" ثم ألقى به جثه هامدة.

كان النهار قد بدأ يبزغ.. فإذا بهم قرب القناه.. لم يكن يعرف ذلك.. جاء بعض البدو.. أخذوا الأسرى وودع الجندى المصرى الطفل.. أدْمَعَ* الطِّفل وقال له:

- "لماذا تتركنى؟.. أين أنت ذاهب؟"

فأجابه:

- "لا تخف قد ترانى مرة أخرى.. مازالت لنا جولة أخرى.

- أَدْمَعَ: أنزل الدمع من عينيه. والهمزة هنا للتعدية أى أنه لم يكتف بالدمع النازل تلقائياً متأثراً بالموقف لكنه أتى بدمع من عنده زائد على ذلك. وفى هذا التعبير من البلاغة أكثر من "دَمَعَ" أو "دمَّعَ".

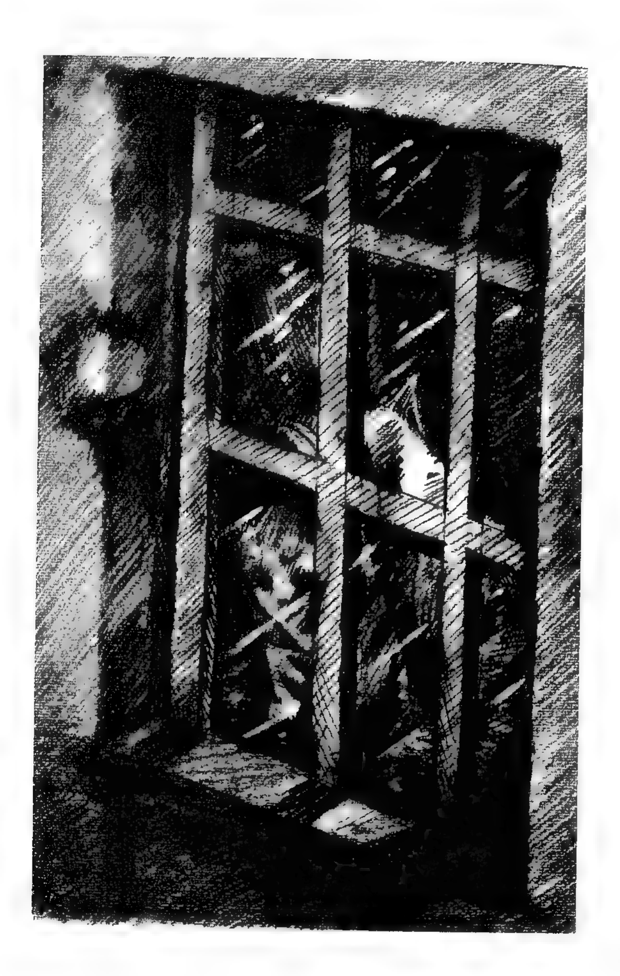
انقاض

ضوء باهت غريب داعب جفونىّ، محاولاً التسلل إلى أعماق الظلام داخل عينىّ.. إنه إذن الصباح، كانوا قد أحضرونى إلى هنا فى مساء أمس، مصاباً بطلق نارى فى ساقى، بدأت الصورة ترتسم فى ذهنى، استيقظت دون أن أفتح عَيْنَىَّ. أحضرونى حقاً فى المساء مصاباً، وتم عمل جراحة فى ساقى ثم أرقدونى فى هذا السرير، نعم هو نفسه. فى هذه الغرفة. فتحت عينىّ.. نعم هى نفس الغرفة. شكلها فى النهار مختلف عن الليل. لم أكن أعرف أن سريرى هذا بجوار النافذة. أغمضت عينىّ ثانية أريحها من الضوء،

ثم فتحتهما وتحركت محاولاً النظر من النافذة. منظر غريب حقاً. النافذة تطل على الشارع الكبير مباشرة. وعن يمينى الميدان الفسيح كنت أشاهد الميدان والطريق وما حول الميدان من مكانى هذا.

كانت عادتى فى قريتى فى مصر أن أجلس بجوار النافذة أشاهد المارة وأتأمل الطريق كثيراً. وذلك قبل حضورى للكويت ضمن القوات المصرية المشاركة فى حرب الخليج. تعودت أن أنصت كل صباح لأصوات العصافير. ولكن هذا الصباح. لا توجد عصافير. منظر غريب حقاً. يبدو الطريق خالياً تماماً من المارة. تذكرت الآن لقد أخليت المنطقة من سكانها. لحمايتهم من القصف الشديد. لم يعد هنا إلا هذا المركز الطبى لم أكن أسمع سوى بعض أصوات لطلقات متتابعة. متناثرة هنا وهناك. شاهدت سيارة عسكرية تخترق الميدان مسرعة. وبعدها لاشىء. الطريق خال تماماً. يخيل إليك أنك يمكن أن تسمع دبيب النمل. لولا هذه الطلقات المتتابعة. القادمة من حيث لا أدرى.. منها ما هو بعيد ومنها ما هو قريب. وكأنها تعزف مقطوعة موسيقية كريهة. أصوات كركرة* شديدة. شعرت أن المركز الطبى يهتز لها بشدة. إنها ثلاثة دبابات متتابعة تخترق الميدان. ثم صمت إلا من هذا النغم الكئيب لأصوات الطلقات. بعض أزيز. ثم انفجار يبدو

- كركرة: الضحك الشديد المرتفع.



بعيداً. أغمضت عينى ثانية وأرحت رأسى على زجاج النافذة. وشعرت بشوق شديد لأصوات العصافير فى قريتنا. كم كان جميلاً. صاخباً فى الصباح. رائحة الزراعات مازالت ترقد فى ذاكرتى قوية. صوت أمى وهى تعمل فى الصباح الباكر. تذكرت أمى اختلج كل جسدى شوقاً لرؤيتها وآثار العجين مازالت على يديها وهى تقدم لنا الخبز الطازج على الطبلية مع طعام الإفطار. وذرات من الدقيق متناثرة على صدرها وأكمامها. رائحة الخبز الطازج أيضاً تداعب ذاكرة أنفى بشدة. الدخان الأسود مازال يجثم على قلب الكويت. كرائحة الدخان الأسود المتسللة إلى أنفى بوحشية وعنف.

أزيز قوى يخترق كيانى ويعيدنى إلى مكانى فى المركز الطبى. إنه يقترب بشدة ليصم الآذان. صوت إنفجار مفاجىء إهتز سريرى بشدة سقطت زجاجات الأدوية وتحطمت. هلع بالمكان. ظننت أنها النهاية وضعت رأسى بين يدىّ وأغمضت عينىّ وتلوت الشهادتين. مازلت حياً.. فتحت عينىّ. لم أرُ شيئاً. غبار وأتربة وزجاج نوافذ متناثر هنا وهناك أغمضت عينىّ ثانية. شاهدت أمى تسحب الجاموسة خارج الدار. أختى تداعب أخى وتضحك بصوت عال. هل انفجر المركز الطبى؟. هدأ الهلع قليلاً. رقدت الأتربة شيئاً فشيئاً إلى الأرض كجثة تنين كبير. لم يصب المركز

الطبى. نظرت من النافذة. مازالت الأتربة والدخان تحاول أن تجد لها مكاناً على أرض الشارع. لقد أصاب الصاروخ أحد النباتات المواجهة تماماً للمركز الطبى إنهار المبنى المكون من عشرة طوابق. تحول إلى كوم من الأحجار والأتربة بارتفاع حوالى ستة أو سبعة أمتار. من آخر الشارع سمعت صوتاا يشبه عواء الكلب شىء ما أسود يقترب مهرولاً من المبنى. تبينته حينما اقترب. إنه إنسان يجرى ويتعثر .. ويصرخ.. إنها امرأة.. تصرخ بشىء يشبه العواء. اقتربت من المبنى المنهار.. ألقت بجسدها على كومة الأتربة الهائلة واحتضنتها. تبينت أخيراً كلامها.. إنها امرأة كويتية "أولادى.. يا ويلى.. أولادى.. انقذوهم ساعدونى.." نهضت وجرت مسرعة جهة اليسار ثم عادت وهرولت جهه الميدان. "أولادى.. ساعدونى... يا ويلى" ثم عادت إلى موقع المبنى وصعدت فوق الأتربة ترفع بعض الكتل وتلقى بها هنا وهناك. نهضت مرة أخرى وهرولت هنا وهناك. شاهدت سيارة عسكرية تعبر الميدان صرخت بالجنود. أقبلت السيارة مسرعة.. إنهم بعض الجنود المصريين. نزل الضابط. "أولادى.. تحت الأنقاض.. ساعدونى" قفز الضابط بسرعة إلى السيارة قائلاً:

- "لا تخافى.. تماسكى يا سيدتى.. سيحضر رجال الدفاع المدنى حالاً.. لا تخافى".

انطلقت السيارة كالبرق.. لم يدر حول الميدان بل اخترق الرصيف واختفى جنوباً. صعدت المرأة مرة أخرى فوق تل الأنقاض "يا سالم.. يا ولدى سالم.. مريم.. ابنتى.. مريم يا مريم.. يا ويلى.. يا سالم".

لم تمر أكثر من دقائق حتى عادت السيارة العسكرية المصرية وخلفها سيارة الدفاع المدنى. نزل الرجال بمعداتهم.. ونظروا إلى كومة الأنقاض. إنها كبيرة جداً قال قائدهم:

- "سيدتى.. هل أنت واثقة من وجود أولادك هنا."

- "نعم.. نعم والله إنهم هنا."

فقال لها الرجل مستغرباً:

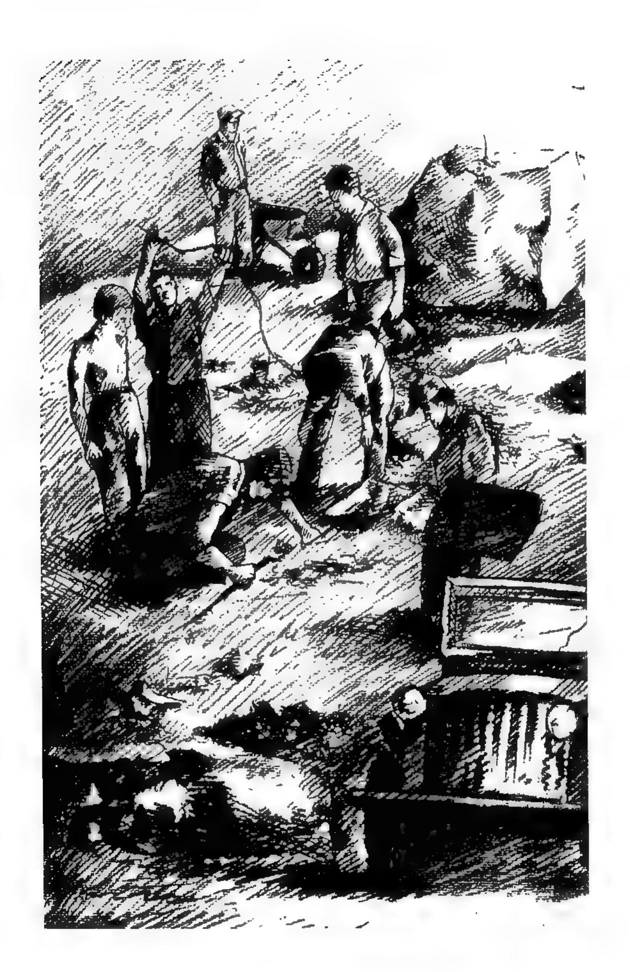
- ولكننا يا سيدتى قد أخلينا المكان.. الحى بأكمله أخليناه."

جلست السيدة إلى الرصيف وولولت:

- "لقد عدنا.. عدنا لنأخذ بعض أغراضنا.. ليتنى ما سمعت الحاحهما.. خرجت لأبحث عن سيارة تنقل أغراضنا.. ياليتنى ماخرجت."

وقفت المرأة وصعدت إلى كومة الأنقاض تنبش فيها... "أولادى.. يا "سالم" يا "مريم".. ليتنى ما خرجت. كان لابد أن أكون معهما الآن".

هدأ الرجل من روعها وبدأ الرجال أعمال الحفر



والتنقيب والتنصنت.. كانوا حوالى ثمانية رجال عرب كويتيون ومصريون وفلسطنيون عملوا بجد واجتهاد.. مرت ساعات.. لا شئ.. من المستحيل رفع كل هذه الأنقاض بمعداتهم البسيطة.. صاح قائد المجموعة:

- ".. الكلاب.. لابد من الإستعانه بها.. وعبر جهاز اللاسلكى.. اتصل الرجل طالباً الكلاب الشُرطية التى ما لبثت أن حضرت مع مدربيها. ثلاثة كلاب شُرَطية.. ارتقت كومة الأنقاض الهائلة وبدأت تتشمم.. وتنبش.. وتعوى.. ثم ما لبثت أن توقفت" سيدتى لا يوجد أحد هنا.. لا أحياء بالمرة ..

صوت مهول خرج من أعماق السيدة.. "كلا" وقفزت كالنمر فوق الكومة ورقدت تستمع وتتشمم تماماً كالكلاب الشُرَطية "سالم.. مريم.." هبطت مسرعة وظلت تسحب أحدَ الكلاب من مدربه "إنهم هنا.. أنا أعلم أنهم هنا.. أرجوكم.. ساعدونى."

قال الرجل: "يا سيدتى إن أمامنا مهام أخرى.. آسف يجب أن أرحل."

أسرع إليه الضابط المصرى مع الجنود الثلاثة "ياسيدى.. أرجوك لا تتركها هكذا... حاول مرة أخرى.. نحن معكم سنساعدكم "فقال الكويتى بتهكم:

- "لا أنتم ولا عشرة من أمثالكم.. كوم الأنقاض كبير جداً يحتاج إلى معدات ثقيلة.. وأيام وليالى.

جلست المرأة إلى الأرض وأخذت يد قائد المجموعة وقبلتها.. ثم قبلتها.. ثم قبلتها:

- "أرجوك.. اسمع كلام هذا المصرى.. سنساعدك كلنا أرجوك."

ثم ولولت وأمسكت بساق الرجل بيديها. شعر الرجل بالحرج الشديد. فصرخ فيها: "إهدئى يا امرأة.. لا يصح أن تصرخى هكذا... اهدئى.. سنستأنف عملنا." وبدأ الرجال فى ربط الكتل الخرسانية بالسيارة الجيب بواسطة سلسلة حديدية.. ثم سحبها بعيداً عن الموقع.. كان الوقت يمر بطيئاً جداً.. ويبدو فعلاً أنه من المستحيل محاولة رفع كل تلك الأنقاض.. عبر السماء غراب أسود زعق عدة مرات فى هلع ثم اختفى..

جاءت رسالة باللاسلكى للضابط المصرى.. إنه استدعاء عاجل من القيادة.. اضطر أن يجمع رجاله ويرحل على وجه السرعة.. عبرت السماء اثنتان من الطائرات الأمريكية.. تصرخ فرحى.. تمر الساعات وتل الأنقاض كما هو.. الأم مازال هلعها يتزايد.. تذكرت طيور أبو قردان فى قريتنا.. تنقب فى الأرض.. خلف أبى الذى كان يحث البقرة على النشاط.. الأم يزداد صراخها زعق بها صوت قادم من الجنوب إنه أزيز صاروخ آخر.. يهرول بالسماء مسرعاً انفجر فى الشارع الخلفى الموازى للميدان.. ارتفعت ألسنة اللهيب..

حرائق كبيرة إشتعلت فى البنايات.. دوت أصوات سيارات الإسعاف والإنقاذ.. واضح أن الجرحى كثيرون.. لم يكن الشارع قد تم إخلاؤه تماماً.. عاد الغراب الأسود يصرخ فوق رءوس الرجال.. جاءتهم إشارة استدعاء إلى موقع الحرائق فقفزوا بسرعة إلى سيارتهم فى اتجاه الحرائق المشتعلة.. ضاع صوت الأم فى خضم هذه الجَلَبَة*.. والخليط المؤلم من الأصوات..

حينما أوشكت الشمس على الغروب مرت سيارة مبتعدة بما تحمله من حقائب فوق شبكتها صوت آذان المغرب.. يحاول جاهداً ايجاد مكان له بين كل تلك الأصوات وصَفارات الإنذار.. وصراخ سيارات الإسعاف والإنقاذ.. تذكرت الزاوية الصغيرة بجوارالترعة.. نحن جالسون فى هدوء وسكينة فى انتظار فراغ المؤذن من الآذان ليقيم الشيخ محمود الصلاة.. صوت العصافير متناغم مع صوت رقرقة المياة تحت أقدامنا فى الترعة.. مرت سيارة مصفحة أمريكية بالشارع وقفت المرأة أمامها تماماً.. كادت السيارة أن تصدمها.. نزل منها ضابط أجنبى صرخت الأم: "أولادى.. هنا.. انقذونى.. أولادى" لم يفهم الرجل شيئاً أمسك المرأة من كتفيها مبتسماً.. رفع حجاب وجهها بشكل فج رفعت المرأة يدها وبقوة صفعته على وجهه.. صرخ بها الرجل سبها ووبخها بعنف.. استدارت المرأة بشكل

- الجلبة: الصياح والصخاب.

حاد إلى كومة الأنقاض وجلست أمامها على ركبتيها وفردت ثوبها.. غرفت الأتربة بيديها.. وضعتها في حجرها.. عدة غرفات.. ثم رفعت طرف الثوب وحملت الأتربة بجهد شديد وعبرت الطريق.. بحركة آلية بحتة.. وألقت الأتربة على الرصيف الآخر.. كف صراخها.. ضحك منها الجنود وانطلقت بهم سيارتهم الضخمة. عادت المرأة إلى كومة الأتربة مرة أخرى.. وجلست أمامها.. وغرفت منها في ثوبها.. أعادت الكرة مرة ومرة ثم مرات.. صمت رهيب أحاط بها.. أحسست كأني أسمع صوت الحصوات الصغيرة وهي تخدش وتجرح أصابع المرأة.. ولكن.. لا ألم.

اظلمت الدنيا.. على ضوء ألسنة اللهب كنت أراها.. كالشبح الأسود تتحرك بشكل آلي بحت.. هاجمها كلب ضال.. زمجر* عليها.. لم تشعر بوجوده.. زمجر.. ثم هجم على ذراعها مزق ثوبها.. دفعته بقوة وأمسكت بحجر ضربته به.. عوى وهرب مرعوباً منها..

لم يكن في استطاعتي السكوت أكثر من ذلك.. وحدها في الظلام تحمل الأتربة جيئة وذهاباً يجب مساعدتها.. لم أكن أعرف كيف فإنه من المستحيل فعلاً عمل شيء.. ولكن يجب النزول إليها.. لم أكن قد وضعت أي خطة لمساعدتها.. المهم التواجد معها.. تذكرت يد أمي تَرْبتُ على كتفي توقظني من النوم.. إن

- زمجر: ردد صوته في صدره كان فيه غلظ.

الخروج من المركز الطبى الآن مستحيل الحراسة مشددة.. أنا رجل عسكرى.. هذا يعتبر هروب من الخدمة... لن يؤذن لى بالخروج أبداً.. لابد من تصريح.. نهضت.. ارتديت حذائى فى هدوء ثم سترتى.. وقفت أنظر من النافذة إلى شبح السيدة تعمل بلا كلل.. بلا صوت.. بلا وهن..

شعرت بيد تَرْبتُ على كتفى وصوت يهمس فى أذنى.. "سآتى معَك" كان جارى فى السرير المجاور.. شيخا فلسطينيا مدنيا مصابا فى ذراعه ومازالت الأربطة تنزف الدم.. سألته: "ماذا قلت؟"

قال :"سآتى معك"

سألته: "أين؟"

أومأ برأسه إلى السيدة وقال: " لقد كنت أراقبها مثلك تماماً.. سأنزل معك.

- "كيف ستخرج من المبنى؟"

أجابنى الفلسطينى: "من السور الخلفى سنصعد إليه ثم ننزل إلى الطريق الخلفى.. لا تخف هيا لن يرانا أحد."

نزلنا السلم إلى الدور السفلى.. كانت هناك ممرضة تجلس إلى كرسى خشبى وهى نصف نائمة.. الحرس على الباب يتسامرون. فتحنا إحدى النوافذ الخلفية

ونزلنا منها إلى الحديقة الخلفية.. ثم ساعدني الفلسطيني وارتقيت السور.. ومددت يدى وسحبته.. صرنا فوق السور الآن. نزلت أنا أولاً إلى الطريق.. ثم مددت يدى وأنزلته. جلسنا القرفصاء بجوار السور.. تلفتنا.. لا أحد بالطريق. قال الفلسطيني:

- "لا يمكن رفع تلك الأنقاض"

قلت له: "أنا لا أفكر في رفع الأنقاض عندى خطة هيا الآن بسرعة تسللنا إلى مكان المرأة "السلام عليكم" لم ترد علينا مازالت تتحرك في شكل آلى انتظرنا بجوار الأنقاض عادت تغرف منها في ثوبها الذى بدأ يتمزق :

- "جئنا لمساعدتك يا سيدتى."

تمتمت "الله يساعدنا."

- "انتظرى.. ليس هكذا يكن الوصول إلى أولادك."

أخيراً نظرت إلى وجهى و تفرست فيه"مصرى؟"

قلت لها:

- "نعم.. ليس هذا هو المهم.. المهم.. هل يوجد في بنايتكم هذه بدروم؟"

- "نعم.. إنه جراج تحت الأرض للسيارات"

نظرت إلى البنايه المجاورة "وتلك لابد أن يكون فيها بدروم"



قالت": نعم إنه محل تجارى."

همس الفلسطينى بحماس "فهمت قصدك"

انتفضت السيدة واقفة فى زعر: "عراقى؟"

قلت لها "لا تخافى إنه أخى سيساعدك" ما زالت ترمقه فى شك كبير وحذر .

"هيا إلى البناية المجاوره" قلت ذلك وأسرعت..

أسرع الإثنان خلفى. كان الباب الحديدى مغلقا بقُفل كبير أحضر الفلسطينى قطعة حديد وضعها فى القفل.. ثم حاول كسره.. ثم صاح بى:

- "أرجوك فك هذه الأربطة.. لا أستطيع تحريك ذراعى منها."

- "ولكن جرحك يبدو أنه لم يلتئم بعد."

- "هيا أسرع فكها.. ليس مهماً.. سنربطها مرة أخرى"

ثم ضحك وقال: "يوماً ما.. يا أخى.. يوماً ما"

فككت له الأربطة بسرعة ومسكنا سوياً.. فإنسكر القفل.. هبطنا الدرج مسرعين.. كان محلاً تجارياً كبير.. الظلام دامس.. أخرج الفلسطينى كبريتا وأضاءه.. قالت السيدة:

- يوجد هنا أجهزة كهربائية.. توجد مصابيح

بالبطارية..

أحضرت السيدة أحد المصابيح وأضاءته. سألت السيدة :"ما هى خطتك؟"

قلت لها: سننقب الجدار بين البنايتين.. ونعبر من خلاله إلى جراج بنايتكم.. ثم نصعد منه..

- "قف مكانك" صوت جهورى صاح بنا.. خرج من خلف أحد الأرفف جندى عراقى.. مدجج بالسلاح.. كان يبدو عليه الرعب والعنف والغضب.. هاجمته السيدة بوحشية.. أطلق عدة طلقات تجاهها من سلاحه.. لم يصيبها. أمسك بها الشيخ الفلسطينى.. ظلت تزمجر وتحاول التخلص منه. همس لها الفلسطينى فى أذنها.. "اهدئى وإلا قتلك.. اهدئى".

أخرج الجندى حبلاً قيدنى به من يَدَىَّ ثم بدأ فى تقييد السيدة.. قال له الشيخ الفلسطينى:

- "أنا شيخ كبير.. أنا رجل مدنى"

لم يكن ليستمع له.. امسك بيدى المرأة وقيدها ماذا حدث ليديك.. إنها ممزقة تماماً.. وما الذى مزق ثيابك هكذا" أجابه الشيخ الفلسطينى: "لقد كانت ترفع الأنقاض بيديها.. العمارة المجاورة انهارت.. أولادها تحت الأنقاض"

فأجابه متهكماً وهو يقيده:



- "هذا كذب هؤلاء الكويتيون كاذبون".. قلت له فى حده:

- "هل أنت إنسان غبى إلى هذا الحد.. وهل تكذب الجراح فى يدها أيضاً؟"

قال بحدة: "لا يمكن أن يكونوا أحياء بعد هذا الإنفجار."

قلت: "انها أم.. قلب الأم هل تعرف ماذا يعنى؟"

أجاب: "لا يمكن أن يكونوا أحياء"

صرخت الأم به وعياناها متحجرتان ناحية الحائط:

- "أولادى أحياء.. أحياء.. إنهم هنا"

إنتفض بدن الجندى العراقى لصراخاتها المفاجئة ثم اتّجه بنظرة ناحية الباب وقال:

- "لن يبقى أحياء بعد الآن.. كل شىء مات.. ضاع.. كل شىء مات."

لاحظت دمعه تسرع مهرولة حول أنفه إلى شاربة.

- "أرجوك ساعدنا ."

فأجاب:

- "لماذا؟.. قلت لك.. كل شىء مات."

قالت المرأة: "أولادى أحياء.."

فاقتربت منه قائلاً:

- "مازلنا أحياء أنا وأنت وهي.. والأطفال.. مازلنا أحياء.. الدمار في الخارج فقط."

صاح بي: "إخرس.. إخرس لا تنطق أى كلمة أخرى.: واقترب مني وأخرج خنجره.. ودفعني بشدة إلى الحائط ثم بحركة سريعة.. كان قد قطع الحبال عن يدى.. ثم فك قيد الجميع وأسرع ناحية الباب. " لا تذهب.. ساعدنا" قالت المرأة الكويتية بصوت يشبه صوت أمي تماماً فاهتز كل بدني.. وتوقف الجندي وكأنما قد شلته كلماتها. قال الرجل الفلسطيني:

- "لا وقت لدينا أسرع".

أحضرنا من المحل بعض المعدات وبدأنا نحاول هدم الجدار خرجت في أيدينا بعض قطع الطوب.. كانت معداتنا عبارة عن مطرقة كبيرة.. وعتله وبعض المفكات.. كانت المرأة الكويتية تنزف بشدة من أصابعها.. تكاد أصابعها أن تكون قد شلت عن الحركة تماماً ولكنها تحفر بالمفكات بقوة ودماءها تزخرف الأحجار تحت يديها.. في صمت كانت تعمل.. في صمت كنا نعمل..! استطعنا نقب الجدار الأول. ولكن حسرتنا كانت كبيرة.. حينما شاهدنا الجدار الثاني.. إنه جدار خرساني.. ظللنا نعمل به ساعات.. لا يمكن نقبه.. ابعدنا الجندى العراقي عن الجدار.. ثم أطلق من

سلاحه الآلى جميع طلقاته إلى الجدار.. ظهرت أعمدة الحديد من الجدار.. حاولنا قطعها لا يمكن.. صحت بالجندى..

- "قنبلتك اليدوية.. أين هى؟"

- "معى اثنتان."

- "تكفى واحدة" قمت بوضع القنبلة بجوار الجدار وإحتمينا جميعاً بسرعة.. انفجرت القنبلة مدوية.. تساقطت البضائع علينا من شدة الإنفجار.. تشقق الجدار ولم يسقط منه شىء صحت به:

- "أعطنى القنبلة الثانية.. إحتموا جميعاً" أخذت منه القنبلة ونزعت فتيلها.. ووضعتها فى أحد الشقوق وفى الوقت المناسب قفزت محتمياً خلف البضائع.. انفجرت القنبلة فأحدثت فتحة فى الجدار.. عبرت منها مسرعاً إلى البناية المصابة "المصباح أعطنى المصباح" ناولتنى المرأة المصباح.. كانت المياه تغمر المكان حتى ركبتى.. عبر الآخرون واحداً تلو الآخر.. تحركنا بسرعة نبحث عن الّدَرج* لنصعد منه.. "سالم.. ولدى.. يا مريم" كان صوتها يدوى فى المكان بصدى غريب.. وكأنها كانت تنادى من خلف الكون.. المكان كالمقبرة.. الهواء ثقيل.. لون الموت يظلم المكان. "هنا.. الّدَرج هنا" صاح الشيخ الفلسطينى.. هرولنا

- الّدَرج: بمعنى السلم.

وسط المياه الراكدة.. نحوه.. كانت إحدى أنابيب المياه تنزف بشدة.. صعدنا الدَّرَجَ إلى الدور العلوى.. ولكننا وجدنا دولاباً خشبياً كبيراً يسد المدخل حاولنا إزاحته ولكنه كان ثقيلاً جداً.. بدأنا تحطيمه قطعة قطعة.. سقط الخشب مفتتاً.. ولكننا وجدنا فوقه كتله خرسانية كبيرة.. صاحت الأم من فتحة تحت زاوية الكتلة الخرسانية:

- "سالم.. ولدي.. مريم"

لم أكن لأصدق أذنى "أمى". صوت طفل صغير ينادى وكأنه من أعماق سحيقة كنا بالكاد نسمعه صرخت الأم:

- "سالم.. لا تخف.. أنا قادمة.. أين مريم"

- "أنا هنا يا أمى.. إنى خائفة.. إنى..."

بكت الأم ضاحكة بشكل جنونى وحاولت العبور من الفتحة تحت الكتلة الخرسانية تحركت الكتلة.. كادت تسقط عليها.. سحبت المرأة بسرعة من ساقها سقطت وسط المياه.. صاح الجندى العراقى: "ناولنى العتلة" وضعنا العتلة تحت طرف الكتلة الخرسانية.. ورفعنا أنا وهو بأكتافنا.. كان كل منا محتضن الآخر بشدة.. لابد من رفع الكتلة رفعة رجل واحد"يا شيخ ضع شيئاً تحت طرف الكتلة الخرسانية حينما نرفعها.. أغمضت عينى ورفعت بكل قوتى.. تذكرت حينما..

سقطت الجاموسة فى البئر فى قريتنا.. رفعناها بالشوم والعصى.. كنت أرفع بكل ما لدى من قوة.. أغمضت عينى وانقذنا الجاموسة.

وضع الرجل الفلسطينى قطعة حجرية تحت طرف الكتلة الخرسانية زحف الجندى العراقى من تحتها "إنتظر" صرخت به، لم يستمع إلى صراخى، لحظات وظهرت رأسى طفل جميل ولكنه ملوث الوجه والملابس بالأتربة لم تنطق الأم، ظلت تحملق فيه بشدة وقد تسمرت على الدرج.. قفز الطفل إلى أعماق أحضانها.. ما لبثنا أن سمعنا صراخ الطفلة الأخرى كانت تبكى خرجت تدعك عينيها.. سحبتها الأم ضمت طفليها فى صمت ثم جلست على الدرج بلا حراك.. ثم فقدت الوعى.. تحرك الحجر من تحت الكتلة الخرسانية قليلاً..

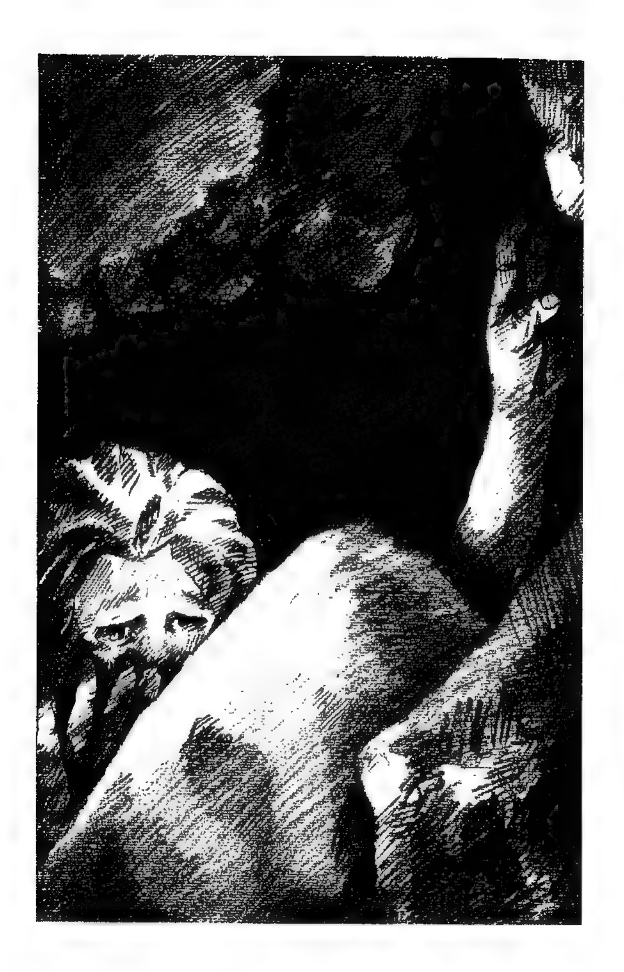
- "هيا أسرع" صحت بالجندى العراقى.

أجاب صوت كالمكتوم من الأعماق :

- "يوجد أحياء هنا."

اندفع رجل كويتى عبر الفتحة وألقى بنفسه إلى المياه ثم نهض صارخاً "أشهد أن لا إله الله.. أشهد أن لا إله الله" ثم بعد ذلك دفعت بفتاة يبدو أنها هندية.. يكاد الحجر يتفتت تحت ثقل الكتلة الخرسانية.

-"أسرع بالله عليك" قال الشيخ الفلسطينى.



انحشر رجل سمين فى الفتحة. سحبناه بقوة أنا والشيخ حتى أخرجناه.. تفتت الحجر الحامل للكتلة الخرسانية إلى النصف.. أخرج العراقى رأسه..

- "لم يعد هنا أحد.. المبنى على وشك الانهيار وزحف على ظهره من تحت الكتلة حتى أخرج صدره.. وفجأة انهارت عليه الكتلة الخرسانية.. سحقت نصفه السفلى.. لم يصر ... تأوه.. حاولنا رفع الكتلة الخرسانية كانت قد سقطت تماماً فوقه. نادى بصوت واهن وهو يئن:

- "يا مصرى.. تعالُ"

اقتربت منه كان وجهه مبتسماً وربت على وجهى وقال:

- "معك حق.. لم يمت شىء مازلنا جميعاً أحياء" وسقطت يده.. وأسلم الروح..

خرجنا من المكان.. لا تكفى الآن دموع الدنيا للبكاء...

هناك أشياء كثيرة.. مازلت تحت الأنقاض.. يجب إنقاذها..

خرجنا جميعاً إلى الطريق.. كان النور قد بدأ يظهر.. والنهار على وشك الخروج من غفوته.. أسرع الجميع من المركز الطبى إلينا.. بدأت الإسعافات الأولية للسيدة.. تركتهم واقتربت منى.. وربتت على كتفى

بيديها الملفوفتين بالضمادات وقالت:

- "أرجو أن تقبل لى أمك على جبينها"

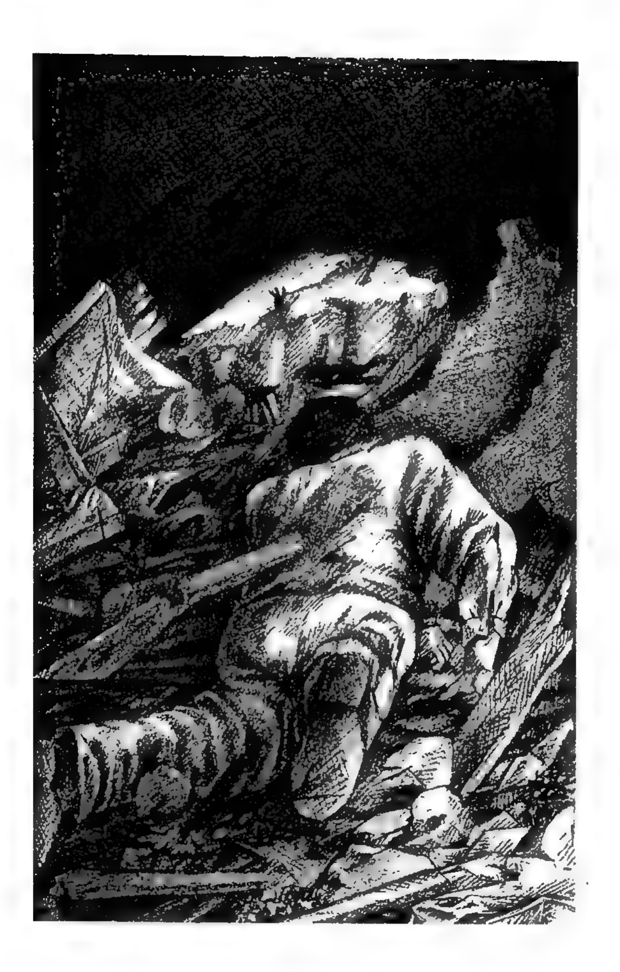
وتركتنى وركبت الكرسى ذا العجلات وهى لازالت ملتفتة إلى مكانى مودعة لى.

صاحت بى الممرضة: ".. هيا.. كيف خرجت؟ جرحك لابد أن يكون ملوثاً الآن.. استند إلى ذراعى."

استندت على ذراعها.. ثم فى لحظة ما شعرت أننى أسمع صوت عصفور وحيد يزقزق معلناً قدوم الصباح. فتذكرت أننى جائع ورائحة خبز أمى الطازج تحاول التسلل إلى أنفى عبر الدخان والمسافات والدمار.

غنيمة

الهـواء ثقـيل.. والرطوبة لا تطاق.. والجـو حـار..
شعرنا أن الهواء كما لو كان جسدا ميتا ثقيلا.. هواء
لا يتنفس، شديد الاختناق.. مازالت السحابة السوداء
الغاضبة تفرض سيطرتها علينا فى إصرار وغضب
شديدين. كانت مهمتنا عمل مركز رقابة فوق إحدى
المبانى فى قرية صغيرة فى شمال الكويت.. وتمركزنا
على سطح المبنى الوحيد الذى مازال قائماً لم يمس..
وكانت معظم المبانى حولنا تنظر إلينا فى حسرة
وألم، كنا سبعة أفراد أقمنا مدفعين رشاشين فوق
السطح وتمركز الزملاء خلف سور المبنى العلوى.. وقد
ساد الصمت بيننا.. ليس هناك مجال للكلام.. فكل ما



حولنا يصرخ بالصمت الكئيب. ثم ما لبثنا أن سمعناه قادماً يئز في صوت صارخ. كما لو كان سكيناً يشق وجه الصمت. نعم إنه صاروخ أرض أرض. وعجباً لقد كان قادماً من جهة الجنوب. كيف ذلك؟.. كان متجهاً إلينا.. نعم.. إلينا مباشرة.. ثم انقض على المبنى اخترق السقف بين أيدينا إلى أسفل ثم.. انفجر وفجر المبنى في صوت أقلق معنى الصمت. وشعرت بأني أهوى إلى أسفل بين الحجارة والأتربة والدخان.. لم أكن أشعر بجسدي. فقد كان إحساسي كأنني حجر ثقيل يحترق هابطاً إلى عمق سحيق.. سحيق.. ليس له قرار.. لابد أنه الموت.. جاء على شكل ظلام مشتعل خانق مخنوق. لم يسعفني لكي أنطق بالشهادتين. عيناي لا تريان.. ملأهما الدخان والتراب. أردت أن أحرك جسدي لا يمكن تحريك أي جزء منه.. لم أكن أنتظر أن يأتيني الموت فجأة هكذا.. ولكن رويداً رويداً شعرت بألم شديد في ساقي اليسرى.. كيف أشعر بالألم؟ لابد أنني لم أمت إذن.. فأنا حي.. والألم يقبض بأسنانه على ساقي بشدة.

كانت الأحجار ثقيلة على جسدي. لذلك لم أكن أستطع الحركة. فجاهدت.. وحاولت.. واستطعت تخليص يدي اليمنى وأزحت ما فوق رأسي من أحجار وما على وجهي من أتربة. إنني لم أمت. مازلت حياً. كانت الأحجار ترقد فوق صدري بشدة. حب الحياة

والفرحة بوجودها وهى تداعب جسدى شبه المحطم أعطانى قوة عجيبة أزحت بها كل ما فوقى من أحجار فانتصبت واقفاً أحاول التنفس حتى ولو كان دخاناً وأتربة.. المهم أننى مازلت حياً. جُلت بنظرى حولى، وناديت: "حسن.. سعيد.. حسن.. أحمد.. وليم.. القائد محمود " لم أسمع أى إجابة.. صَمْتٌ إلا من صوت زفير الأتربة.. والأحجار المتراكمة بحثت.. كل منهم قد مات.. نعم مات الجميع واستشهد.. انفجرت أجساد البعض.. واحترق الآخر.. تعثرت بهم فى الجو الخانق هنا وهناك وتعرفت عليهم الستة.. قتلى.. تتعثر أقدامى بأجسادهم حولى وسط الأحجار..

علقت قدمى بشىء ما التف حولها.. شىء ما طويل.. كدت أسقط على وجهى، جلست لأخلص قدمى منه.. إنه سلسلة ذهبية سميكة.. استطعت أن أتبينها.. وبريق الذهب يأخذ عَيْنَىّ فى الظلام. أمسكتها فى يدى وبحثت باليد الأخرى بين التراب.. هذه غيرها.. وغيرها.. ما هذا؟ أساور ذهبية.. كميات كبيرة من الذهب.. أشعلت عود ثقاب إنها فعلاً كميات كبيرة جداً من الذهب حاولت جمعها. أحرق الثقاب أصابعى، أشعلت غيره.. كان جسدى ينتفض بشدة.. لست أدرى أمن الألم أو من الخوف أو من شكل الذهب والجوهرات، أشعلت ثقاباً آخر، كان هناك بصيص نار يلتهم شيئا ما أمامى فى صمت إنها

بعض رزم الأوراق المالية تحترق أسرعت لأطفئها بقدمي.. صرخ الجرح في ساقي ونهش بأسنانه بشدة. أطفأت النيران وانحنيت لألتقطها.. لم أستطع الرؤية. سالت بعض الدماء من مفرق رأسي على عَيْنَيَّ.. مسحتها بأصابعي وانحنيت مرة أخرى.. إنها رزم كثيرة من العملات. دولارات ودنانير وعملات أخرى لم أتبينها.. جمعتها من بين الأنقاض ووضعتها فوق الذهب والجوهرات وجلست وأجهشت بالبكاء.. بكاء لم أعرف ما سببه ولا من أين جاء.

تراءى وجه أبي ذو اللحية وهو يقترض عشرون جنيهاً من جارنا في القرية.. عشرين جنيها لتساعدني في سفري إلى الكويت.. أصر أن يعطيها لي بأكملها.. ديون أبي صارت كثيرة.. وآماله كانت تكبر كلما كبرت أنا.. وصبره كان يزيد ويزيد.. سأتخرج وأنقذ تلك الأسرة من الفقر.. كان أبي أجيراً ولكن السن والمرض أقعداه.. كان يعمل يوماً ويرقد يومين.. وكأن الدنيا تخرج له لسانها. تحسست بيدي الغنيمة نعم إنها غنيمة حرب وسأنقذ أسرتي بل وقريتي من هذا الفقر الشديد. إنها هبة من الله لي.. لي أنا وحدي.. لو أراد الله لأحد أن يشاركني في غنيمتي لما أماتهم جميعاً.. إنها غنيمتي وحدي.

ذهبت وأزحت الأحجار من عند باب المنزل وفتحته بصعوبة فدخل بعض ضوءٍ خافت إلى داخل البيت.

أضاء الأتربة العالقة فى الجو. نظرت إلى الطريق. لا أحد. لا يوجد أحد فى الطريق. بحثت فى أرجاء المكان.. متلهفاً عن شىء ما أحمل فيه غنيمتى. كلما وقع بصرى على جثة أحد الزملاء كنت أشيح بوجهى بسرعة حيث كانت تزداد قشعريرة بدنى ويغرس الألم أنيابه بشدة فى جرح ساقى معترضاً.

أخيراً وجدت حقيبة زرقاء.. حقيبة ملابس كبيرة.. كانت مكتظة بالملابس. شتى أنواع الملابس وكأن من ملأها كان فى عجلة من أمره.. لقد تركها أهل البيت. وتركوه بسرعة لسبب ما لست أدرى ما هو.. ربما هرباً بأرواحهم من لهيب المعركة أو نيران الحقد.. أو غفلة الغنى الفاحش.

فتحت الحقيبة عن آخرها وقلبتها فلفظت كل ما فيها من ملابس وفتحت فاها مستقبلة غنيمتى.

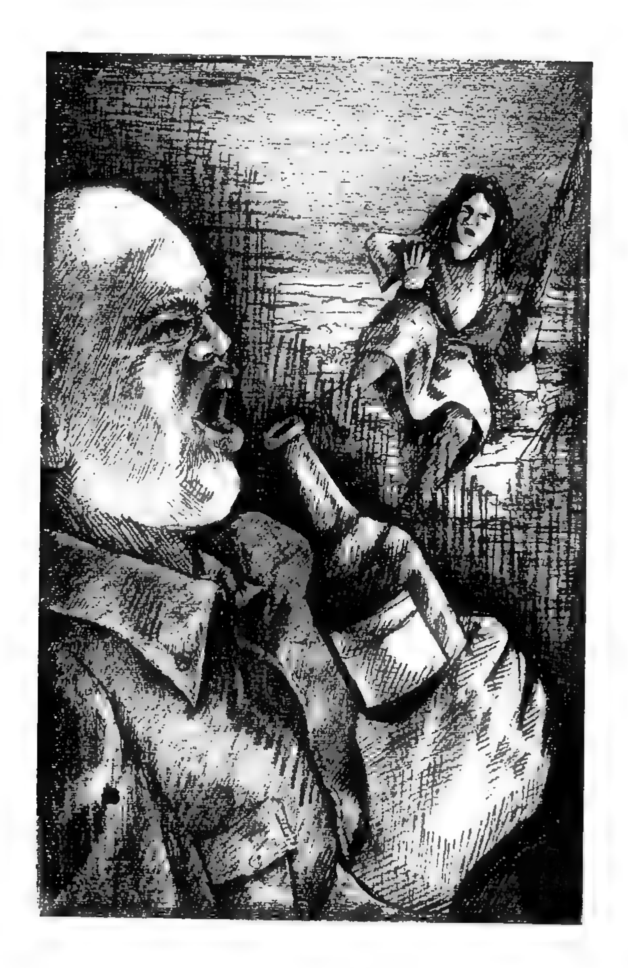
جمعت الذهب والجوهرات وضعتها أسفل الحقيبة بسرعة.. ملأت ثلاثة أرباعها.. ثم صففت الأوراق المالية فوق الذهب وأغلقت الحقيبة التى انتفخت عن آخرها.. لقد كانت ثقيلة جداً.. ظللت أسحبها وأزحف بها من فوق الأنقاض حتى وصلت إلى باب البيت وقفزت خارج البيت.. ثم سحبت حقيبتى.. غنيمتى واحتضنتها بشدة فى حب.. وشوق.. وفرح.. وشهوة وأحلام شتى.

لم أكن لأفكر فى شىء سوى أن تلك غنيمتى..

وحدى.. أرسلها الله لى لعلمه بحالى وحال أسرتى.. امتنع ذهنى عن التفكير إلا فى كيفية الهروب بها من هذا البلد. حملت الحقيبة بجهد شديد والدماء تحاول أن تغلق عينىّ كما لو كانت تريد أن تقول شيئاً ما.. الجرح يمسك بساقى بأسنانه بشدة ويمزق أعصابى مزمجراً صارخاً، وأنا متمسك بغنيمتى تمسكى بروحى.

عبرت الطريق إلى الجهة اليسرى والعرق الناتج عن الرطوبة اللزجة يغمر كل جسدى، يجب الخروج من هذه المنطقة قبل حضور رجال الدفاع المدنى. حاولت إسراع الخطى وأنا أعرج وأئن بشدة.

"قف مكانك" صرخة دوت فى أذنى وكأنها الرعد انتفض لها بدنى بشدة. كان الصوت خلفى مباشرة. أسقطت الحقيبة ورفعت يدى واستدرت على مهل.. كان جندياً عراقياً، "ماذا فى يديك؟" صرخ بى.. ولم أجبه اقترب منى لاحظت أنه جريح والدم يغطى صدره بالكامل.. رفع سلاحه ورفع عنه ذراع الأمان وصوب جهتى وهَمَّ بإطلاق النار.. كدت أسقط إغماء وأُغْمِضت عيناه.. أو أن الدم قد أغمضهما.. وفجأة سمعت صوت ارتطام على الأرض.. سقط الجندى العراقى صريعاً فى اللحظة التى هم أن يطلق فيها الرصاص.. تقدمت إليه.. لقد مات فعلاً.. سحبت خنجر السلاح (السونكى) من سلاحه ووضعته فى



حزامى وحملت حقيبتى وحاولت الإسراع. لم أتحرك سوى بضع خطوات.. حتى سمعت أصوات كثيرة قادمة من إحدى الخرائب المهدمة.. كان صوت صراخ مختلط بضحكات غريبة.. تقدمت منحنياً خلف السور ورفعت نظرى مستطلعاً.. كان هناك جنديان مصريان يدفعان أسيراً عراقياً.. تقدما ناحية السور الذى أجلس خلفه.. وأجلساه أمامى مباشرة.. وذهبا إلى ثلاثة من الجنود الأجانب.. كان قائدهم ضخم الجثة .. حليق الرأس.. وقد شمر عن ساعديه ومعه اثنان آخران وكان ثلاثتهم فى حالة سكر شديد ولم أتعرف على جنسياتهم فلم يضعوا أغطية الرأس ولا الشارات.. أمسك قائدهم فى يده بفتاه كويتية وبقبضة شديدة.. أمسك بذراعها ورفع عنها خمارها.. لقد كانت فتاة صغيرة فى حوالى السادسة عشر من عمرها فى غاية الجمال و... منتهى الرعب.. احتضنها الجندى الأجنبى بشدة محاولاً تقبيلها..

أسرع الجنديان المصريان إليه صارخين:

- "لسنا فى فيتنام.. أو إكوادور.. نحن عرب." ودفعه أحدهما فى صدره بشدة فأبعده عن الفتاة قليلاً ولكن أحد الجنود الأجانب ضرب المصرى على مؤخره رأسه بسلاحه ضربة قوية أسقطته أرضاً ووضع الأجنبى الآخر سلاحه فى جبهة المصرى الثانى.. وقاما بتقييدهما وألقيا بهما فى مواجهة الجندى العراقى..

قبض قائدهم بشدة على ذراع الفتاة وهو يحاول مرة أخرى تقبيلها.. وكان ثلاثتهم يضحكون بشكل غريب فرحاً بغنيمتهم وألقوا بالفتاة إلى الأرض. وشلوا حركتها.

شيء ما في داخلي صرخ بي أن أتحرك.. أن أفعل شيئا. شيء قادم من أعماقي.. من على بعد ستة آلاف سنة صرخ بشدة فانفتحت عيناي عن آخرهما رغم الدماء.. أين أنا الآن؟

كانت غنيمتي ثقيلة.. ستعيقني عن الحركة.. ذهبت ووضعتها بجوار باب البيت المصاب وعدت مسرعاً.. لم يكن بجانبي إلا الجندي العراقي سحبت خنجر (السونكي) من حزامي ومددت يدي من فتحه في الجدار واستطعت أن أقطع الحبل وأحل وثاقه.. كان الجنديان المصريان في الجهة الأخرى من الفناء.. وضعت الخنجر في يد الجندي العراقي وهمست به "انتظر" فأجاب "حسناً" أسرعت بالالتفاف حول الفناء.. يبدو أن أنياب الألم قد تركت ساقي.. تعاوناً منها معي.. لم أعد أشعر بالألم.. وجفت الدماء من جرح رأسي ولم تعد تسيل.. قوة عجيبة انتشرت بسرعة في أعضاء جسدي.. أخرجت مسدسي وتسللت إلى الجهة الآخرى وصعدت إلى أعلى الجدار.. شاهدني الجندي العراقي.. وبكل ما لدي من قوة وكأن صراخ الفتاة حملني على جناحيه.. قفزت قفزة مهولة وأخذت الجنديان الأجنبيان

بين ذراعىّ وسقطت بهما أرضاً.. فى نفس اللحظة نهض الجندى العراقى صارخاً "كلاب" وأمسك قائدهم من رأسه وبسرعة البرق كان قد ذبحه كالشاه.. وأسرع ففك قيد الجنديين المصريين.. كان أحد الجنود الأجانب قد غاب عن الوعى فور اصطدام رأسه بالأرض.. ووضعت أنا فوهة مسدسى فى مؤخرة رأس الثانى بعد أن شللت حركته، ثم قمت بتقييده.

حينما رأت الفتاة الكويتية الجندى الأجنبى وهو يذبح، ظلت تصرخ بشكل جنونى.. وكأن جهنم قد فتحت أبوابها.. أسرع إليها الجندى العراقى محاولاً تهدئتها.. ولكن شكل الجندى الممسك بالخنجر الذى يقطر دماً وقد تلوث وجهه وملابسه بالدم المنبثق من عنق المذبوح زادها رعباً فازداد صراخها.. فأسرع إليه أحد المصريين صارخاً به "ابتعد أنت الآن" ثم أمسك بالفتاة بشدة وصفعها صفعة قوية.. فهدأت ثورتها وجلست ممزقة الثياب تبكى.. نظر الجندى العراقى لنا جميعاً فى نظرات زائغة ثم ألقى الخنجر ناحيتى فانغرس نصله فى الأرض أمام قدمىّ، ثم قفز إلى الجدار وفى سرعة عجيبة قفز فوق سطح مبنى واختفى..

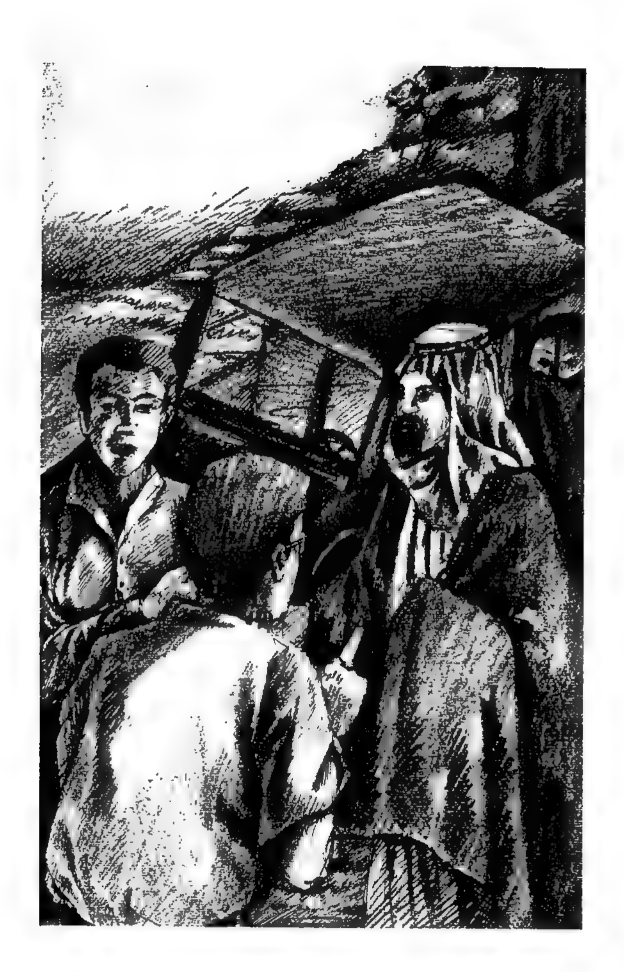
وقفنا فى صمت... لم يحاول أحد منا مطاردته.

"هيا إلى السيارة" قالها أحد الجنديين المصريين وهو

يحمل الفتاة الكويتية على ذراعيه فى حنان زائد. وساعدنى الآخر على السير إلى السيارة فركبنا جميعاً وانطلقت حول الفناء جهه الجنوب.. فى الطريق الأسود الممتد المغلف بالجو الرمادى الخانق. وحين مررنا من أمام البيت المصاب حانت منى التفاته إلى الحقيبة المنتفخة تقبع ناظرة نحوى، فابتسمت فى هدوء وإذا بيد الفتاة الصغيرة تربت على كتفى وكأنها تقول "بارك الله فيك" وحينها فجأة شق السحاب الأسود الكثيف شعاع ضوء وحيد.. رقيق جداً قادماً من الشمس الحزينة ومسح على السيارة برفق.. وبضوء مبهر. ثم توارى مرة أخرى خلف السحب السوداء فى خجل شديد.. وانتظار.

وادى الذئاب

على عجل وبتوتر شديد وضعنا حقائبنا فى خلفية سيارتى القديمة من نوع مازدا ونحن فى شك من استطاعتها أن تكمل بنا الطريق إلى خارج الكويت. وعند الفجر انطلقنا إلى الحدود ودوى الرصاص مازال فى آذاننا، وهول المفاجأة ألجم ألسنتنا. كان رفيقى بالرحلة زميلى فى العمل "محمد عثمان". وعند أول ضوء شاهدنا سيارة أمريكية معطلة على الطريق. أشار لنا سائقها بالتوقف. كان كويتى الجنسية. لم نرد التوقف. حينما مررنا به وجدنا معه امرأة وطفلاً صغيراً فاضطررنا للتوقف والعودة إليه.



كان محرك سيارته قد احترق تماماً. طلب منا مرافقتنا إلى الحدود توسل إلينا حيث طفله الصغير مصاباً بالربو والدخان الناتج من حرق آبار البترول يخنقه.. أسقط في يدنا. ثقتنا في سيارتنا المازدا معدومة. وفي النهاية وافقنا على اصطحابه. ركب الرجل وأسرته معنا في فرح شديد واتجهنا جنوباً.. كان الرجل ممتلئ الجسم أبيض البشرة.. نظيف الثياب.. يبدو عليه الثراء الشديد. كان الطفل في حوالي الثانية من عمره جميل الوجه ذا شعر أسود مسترسل ناعم. وكانت امرأته ترتدي نقاباً أسودَ وفي حالة صمت تام .وبدا عليها الحمل واضحاً كان الجو حاراً جداً. والرمال الساخنة تلفح وجوهنا وتكاد تخترق الجلد. لف الرجل الكويتي غطاء رأسه حول وجهه. ولم يظهر إلا عيناه..كانت عاصفة رملية شديدة. ملتهبة تواجهنا.. لم نكن في تلك الأيام نعرف وسط النهار من أوله أو آخره.. الشمس لم تعد تظهر أبداً. فالسحب السوداء تغطي سماء الكويت. ومازالت ألسنة اللهب تعوى. صاعدة من آبار البترول تتلوى هنا وهناك. وفجأة طلب مني الرجل التوقف والعودة بالسيارة للخلف عدة أمتار ثم انحرف يميناً في طريق ترابي وعر. سألته:

-"لماذا يا سيدي؟"

فأجابني: "تلك طريق مختصر. ستوفر علينا ٨٠ كيلو متر.. ثم إنها ستبعدنا عن خط الآبار المشتعلة".

نظرت لزميلى فأومأ لى بأنه ليس لديه مانع. وقال الرجل مضيفاً: "لا تخافا إننى أعرف هذا الدرب جيداً لقد كنا نصطاد هنا أيام الربيع.. لا تخافا".

مازال الهواء كأنه نار ملتهبة تلهب وجوهنا، والرمال الساخنة تحرق جلودنا.. وقد وضعت المرأة وشاحها الأسود حول طفلها حماية له.

كادت عيناى تغفلان، وانتبهت إلى صوت احتدام بالسيارة.. سأل محمد عثمان:

- "ما هذا؟!"

فأجبته: "لا تخف إنها فقط صخرة صدمت مقدمة السيارة.. اهدأ."

فقال محمد: " لم أقصد ذلك.. إنما أقصد هذا الصوت الذى يشبه عواء الذئب."

فأجابه الرجل ضاحكاً: "حقاً.. إنه عواء ذئاب.. نحن نمر الآن بوادى الذئاب هذا الوادى لا يسكنه إلا الذئاب... أرجو أن نعبره قبل حلول الظلام فنحن فى أمان طالما لم يحل الظلام" حاولت أن أهدىء من روعى.. وحاولت جاهداً أن أركز عينىّ.. لكن توترى كان شديداً بسبب هذا العواء الشديد هدأت سرعة السيارة وسمعت صوت صفير.. وإذا ببخار يخرج من مقدمة السيارة "ما هذا أيضاً" فأجبت الكويتى فى غضب:

- "إن حرارة السيارة ارتفعت فجأة.. لن تستطيع السير بها هكذا وإلا احترقت".

نزلنا من السيارة ولخبرتي البسيطة في الميكانيكا.. رفعت غطاء الماكينة فإذا بمياه المبرد تغلي بشدة.. نزلت أسفل السيارة.. لقد ثقبت الصخرة التي مررنا عليها من حين خرطوم المياة السفلي، قال زميلي محمد عثمان:

- "لقد مررنا على عُشَيْش منذ دقائق.. يجب العودة إليه عسى أن نجد به أحداً يصلح لنا الخرطوم.. أو نجد ماء للمبرد"..

إنتظرنا حتى بردت السيارة.. ثم وضعنا في المبرد زجاجتي مياه الشرب التي معنا.. ورجعت بالسيارة إلى موقع العشيش، وذهب زميلي بإناء كبير ليملأه ماء.. إن وجد.. ونزلت أنا أسفل السيارة بالعدة لأصلح الخرطوم المثقوب.. مازال عواء الذئاب يتزايد مع مرور الوقت.. ويعلو ويقترب منا، عاد زميلي بإنائين بهما ماء وهو يبتسم "توجد هناك مضخة يدوية للمياه. ولكن لا أحد بالعشيش كان بيننا وبين العشيش حوالي مائه متر... أخذ الرجل أسرته وذهب للشرب والاغتسال "تعالَ معنا يا محمد لحمايتنا" وذهب زميلي لحمايتهم صائحاً :

- "يجب العودة للسيارة بسرعة فالليل على وشك..

وأنا أخاف عليكم من الذئاب"

فأجابه الرجل مسرعاً بأسرته: "لا تخف سنعود بسرعة."

استطعت فك الخرطوم من مكانه وبحثت فى السيارة عن بديل له.. لم أجد وأخيراً وجدت فى درج السيارة لفة كبيرة من الشريط اللاصق. نظفت الخرطوم جيداً.. وجففته ثم لففت الشريط اللاصق عليه جيداً حتى تأكدت أن الثقب قد اختفى وأصبح الخرطوم صالحاً. نزلت تحت السيارة وأعدته إلى مكانه. كنت أسمع ضحكات الصغير تأتينى من عند العشيش فأشعر بالأمان وخرجت من أسفل السيارة وملأت المبرد بالمياه. ثم وضعت الباقى فى حقيبه السيارة ثم ما لبثت أن سمعت صراخاً شديداً.. كان الجميع يصرخ.

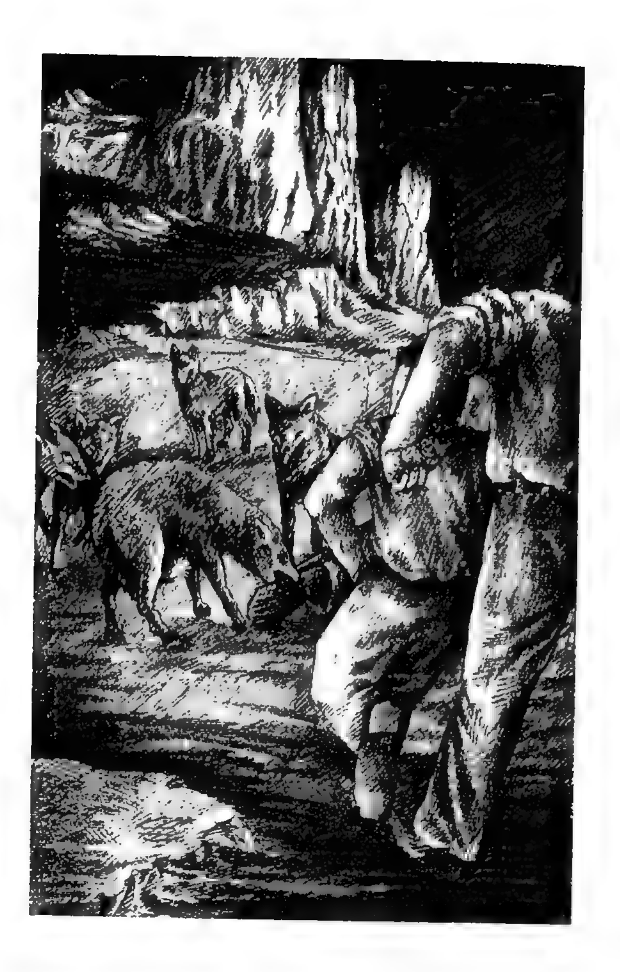
كان الصراخ مُختلطاً بزمجرة مرعبة.. لابد أنها الذئاب.. لاحظت فعلاً أن الظلام قد انتشر فجأة. أسرعت بأقصى ما لدى من قوة تجاه العشيش.. لقد كانت الذئاب تحيط بهم على مقربة منه وكان "محمد عثمان" زميلى ممسكاً بعصا كبيرة محاولاً إبعاد الذئاب عنهم كنت أصرخ فى الذئاب بأعلى صوتى كالمجنون.. وألقيت بنفسى وسط الذئاب راكلاً إياها بقدمى صارخاً:

- "إلى العشيش.. هيا.. أسرعوا."

فأسرعت الأسرة إلى الداخل, فجأة شعرت بجسم ثقيل ينقض على ظهرى وبأسنان تنغرس فى كتفى, بدون وعى وبكل ما لدى من قوة دفعت بالذئب الضخم إلى الوراء والتفت إليه مسرعاً فاختل توازنى وسقطت على الأرض هجم الذئب بقوة راقداً فوقى فأمسكت برقبته بكلتا يداى.. لإبعاده عن وجهى.. كان لعابه يسيل على رقبتى, وساقاه تحفران فى بطنى وفخذى بقوة صرخت: "يا محمد"

أسرع "محمد عثمان" وضرب الذئب على رأسه بالعصا.. عوى الذئب وتركنى وهرب رفعنى "محمد" من تحت إبطى وهو يدافع بيده الأخرى بالعصا, تكاثرت الذئاب على العصا وسحبتها من يد "محمد" فصاح "إجر.. إجر.." عَدَونا بأسرعَ ما عندنا من قوة, ولكن "محمداً" صرخ وانكفأ على وجهه, كان الذئب قد أمسكه من عقبه, رفعت حجراً وضربت به الذئب على رأسه, عوى الذئب وهرب بعيداً عدَونا مرة أخرى ودخلنا العشيش وحاولنا إغلاق الباب, وأنياب الذئاب تحاول المرور خلفنا, بأقدامنا ضربناهم حتى استطعنا أن نغلق الباب, ظلت الذئاب تقضم فى خشب الباب وتحفره بأقدامها محاولة تحطيمه.

لحظات من السكون بيننا ثم قلت:



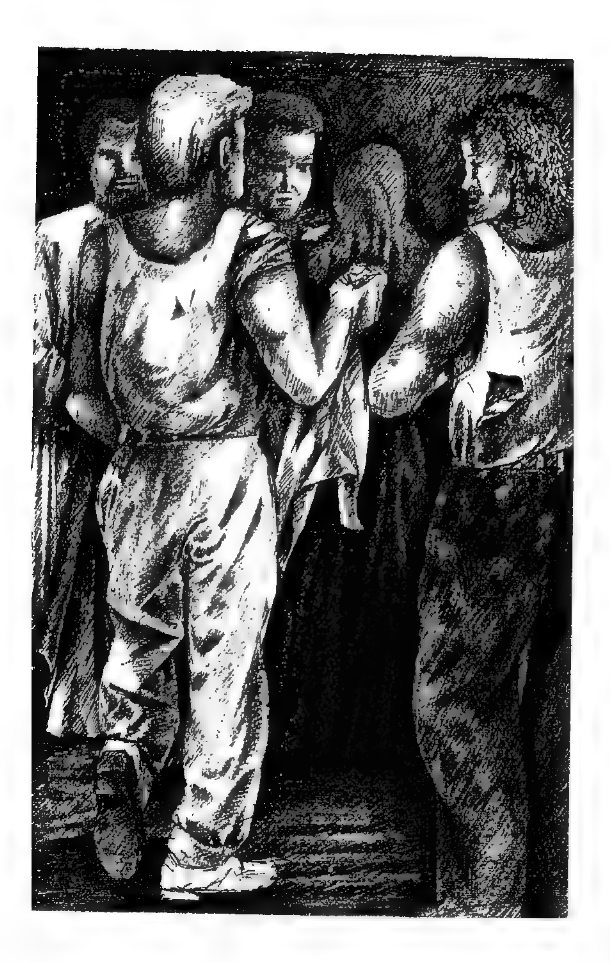
- "هل يوجد مع أحدكم كبريت؟"

أجاب الرجل الكويتي: "معي قداحة" أشعلها وأشعلنا ورقة مما كان على الأرض وبحثنا في المكان.. لم يكن في المكان سوى ثلاجة قديمة مملوءة بالصدأ، وفرشة من الحصير وصينية نحاس وكذلك مصباح كيروسين معلق على الحائط. أضأنا المصباح. كان الكيروسين فيه قليلاً جداً. كانت الذئاب والعاصفة تتبادلان العواء مع استمرار الزمجرة.. ونهش الباب لمحاولة تحطيمه. وجدنا في ركن المكان ثوباً رجالياً أبيض اللون. مزقناه وصنعنا منه ضمادات لجروحنا.. كتفي وقدم زميلي.

اتفقنا على أننا لا يمكن الخروج في الليل ولابد من الانتظار للصباح حتى تذهب الذئاب. وقررنا عمل مناوبة حراسة بين ثلاثتنا حتى يستطيع الآخرون النوم قليلاً. وكانت نوبتي الأولى. لم أستطع أن أبعد صورة الذئب من ذهني وهو قابع فوقي. كان وجهه كالشيطان. وعيناه تلمعان وأنيابه حادة وشعره خشن كث×. كانت نظراته لي يملؤها الخوف والكراهية معاً.

مازال صوت الليل يناجي عواء الذئاب بعواء العاصفة ومازالت صورة الذئب والإحساس بأسنانه تنغرس في كتفي تلاعبني.

انتهت مدة مناوبتي. أيقظت "محمداً" ليستلم



منى ليس رغبة فى النوم ولكن لشعورى بالوحدة. فتح "محمد" عينيه ثم قفز واقفاً "ماهذا؟" كان صوت ارتطام شديد على الباب وصراخ وصراع بين الذئاب وكأنها معركة.

"هل تتصارع الذئاب الآن؟" قال "محمد" متسائلاً.

أجابه صوت أنين آدمى على تساؤله. إذن.. يوجد شخص ما بين الذئاب أسرع كل منا للعمل فأخذت جريدة ملقاه على الأرض وأخذ "محمد" باقى الثوب الأبيض وأوقدنا فيها النار وخرجنا لمقابلة الذئاب بها.

لقد كان منظراً رهيباً.. زاد عدد الذئاب الآن عن عشرين وهى تتصارع لتنهش رجلا ملقى على الباب ويحاول بكل ما يملك أن يبعدها عنه. لوحنا للذئاب بالنار وصرخنا بها. ابتعدت فعلاً الذئاب خوفاً من النار سحبنا الرجل بسرعة وأغلقنا الباب الذى عادت الذئاب لنهشه مرة أخرى.. صرخ الكويتى بأعلى صوته "إنه عراقى.. إنه جندى عراقى.. لابد من قتله" وهجم عليه محاولاً خنقه. أبعده "محمد عثمان" بسرعة:

- "اهدأ يا رجل إنه مصاب."

كان الجندى العراقى مصابا بشكل وحشى فى شتى أنحاء جسده... كادت الذئاب أن تمزقه إرباً. كان الجندى العراقى ممسكاً ببطنه بشدة رفعت يديه وفتحت أزرار سترته لقد مزقت الذئاب بطنه. وتكاد أمعاءه تظهر

منهـــا.. إنهـــا إصـــابة خـطـــيرة. نهـــضت وقـلـــت للرجل الكويتى "يجب التحرك الآن هذا الرجل فى حاجة إلى الإسعاف السريع".

فصاح الكويتى:

- "أنا لن أغامر بأسرتى من أجل هذا العراقى اللص."

فـــأجـــاب الجندي فى وهـن: "أنا لست لصـــاً يا أخى"فصاح الكويتى :

- "بل انت لص وجبـان" انك الآن أسيرى وستآخـذ عقابك."

فـابتسم العراقى وقـال: "كـان يمكن ان تكون أنت أسيرى الآن".

صحت بالإثنين: "اصمتا.. نحن جميعاً أصبحنا الآن أسرى للذئاب هل ارحتما الآن؟".

قال العراقى: "عموماً إن جرحى قاتل ولن أعيش حتى الصباح لكى تأسرنى".

كان هناك سلمٌ خشبىٌ يرقى إلى السطح. صعدت عليه إلى السطح وعلى ضوء نيران الآبار المشتعلة شاهدت الذئاب بعدد مهول كانت هناك سيارة نصف نقل قديمة بلا إطارات محطمة الزجاج. ومضخة المياة. ودراجة مركونة بجوار الحائط الخلفى. ليس هناك مفر. لابد من الانتظار حتى الصباح نزلت إلى الداخل مرة

أخرى. كان الكويتى يقول فى عصبية "بل أنتم لصوص جبناء" ألقى العراقى رأسه جانباً مستنداً إلى الحائط ونظر إلى الباب والذئاب تكاد تحطمه ثم سأل الكويتى "هل تعلم يا أخى ماذا تفعل هذه الذئاب إذا ما اشتد بها الجوع؟ "لم يجبه الكويتى بل ظل يزحر. فاستطرد العراقى قائلاً "إنها يا أخى تهاجم بعضها .. هل تفهم ذلك؟" نظر الكويتى إلينا وكأنه يبحث فى وجوهنا عن معنى هذا التساؤل. قال "محمد عثمان" إن المناوبة عليك الآن يا سيدى" فقال الكويتى:

- "حسناً سأسهر على نومكم جميعاً فأنا لا أستطيع النوم مع هذا الغازى" وانطفأ المصباح.

تسلل التعب إلى جسدى وقفز النوم محارباً صورة الذئب الرهيبة ليبعدها عنى وثقلت عيناى.. ومازالت أذناى فى اتساع تلك الصحراء لتسمع هذا التناغم العجيب بين صوت العاصفة وعواء الذئاب.

انتبهت فجأة على صوت تحطيم خشب الباب وزمجرة الذئاب داخل العشيش. لم أر شيئاً. الظلام دامس. صراخ الطفل الصغير مختلط بزمجرة الذئاب صاح الجندى العراقى: " المصباح أضىءُ المصباح"

أضاء الكويتى المصباح بسرعة. وكان منظراً رهيباً. اثنان من الذئاب يسحبان الطفل من يديه خارج العشيش من فتحة كانوا قد أحدثوها فى الباب. قفز

العـراقـى بـكـل مــا لـديـه مـن قــوة واحـتــضـن أحــد الـذئـاب وأحـاط رقـبـتــه بـذراعـيـه بـقـوة واسـتـمـاتـه. وأســرعـت أنـا و"مــحــمــد عــثــمــان" ركـلاً فــى الـذئـب الآخــر بـأحــذيـتـنـا الثقيلة فى ضلوعة حتى هرب.

سـقـط الجندى العـراقـى والذئب هامـدين، اعـتـقـدنا أنهـمـا مـاتـا.. لاحظنـا أن الجندى العـراقـى مـازال حـيـاً ولـكـنـه فـاقـد الـوعـى مـن شــدة المجـهـود أمـا الـذئـب فـقـد اختنق ومات. انطفأ المصباح مرة أخرى. أسرعت الذئاب تحاول الـدخـول مـرة أخـرى من الـفـتـحـة رفـعـت الـثـلاجـة الـقـديمـة وأغـلـقـت بـهـا هـذه الـفـتـحــة. أضــاء الـكـويـتـى المصبـــاح. صـرخـت الأم: "ولـدى.. ولـدى.." أســرع الزوج إلـيـهـا وأسـرعـت معه. كـان ذراع الـطـفـل يـنـزف، الـبـاب عـلـى وشك الانهيار أمام الذئاب. يكاد يكون ذراع الطفل ممزقاً تمامـاً أحـضـرت قـطـعـة قـمـاش بـاقـيـة ولـفـفـت بـهـا ذراع الطفل.

صاحت الأم:

- "الطـبـيـب.. يجب أن نذهـب به إلـى الطـبـيـب حــالاً.. أرجوكم."

ولكـن "محـمـد عثمان" قال لها:

- "لا يمكن.. الذئاب بالخارج..

انطفأ المصباح تماماً قالت الأم:

- "ولدى سيموت إن لم نسعفه.. والله لأخرجن وحدى أقاتل الذئاب إن لم تساعدونى."

صرخ الكويتى : "يا ويلى" وأضاء قداحته قائلاً.. "وما العمل الآن ؟"

قال زميلى: " ليس أمامنا إلا الخروج."

خطرت لى فكرة صرخت بالجميع "ليخلع كل منا رداءه هيا بسرعة"...

خلع الكويتى رداءه... وخلع العراقى سترته وخلعت أنا قميصى وكذلك زميلى وخلعت المرأة عباءتها... أحضرت بعض العصى ولففت على كل منها قطعة من الأقمشة وأشعلت النيران وحمل كل منا واحدة كمشعل نار.. حملت السيدة طفلها بين يديها... فتحت الباب.. أشرت بالنار إلى الذئاب تراجعت قليلاً... خرجنا.. عملنا دائرة حول السيدة بالمشاعل.

الكويتى والعراقى ونحن أنا وزميلى المصرى الآخر.. التفت حولنا الذئاب زمجرت بغضب.. لم تستطع الاقتراب.. بسبب النار.. لا يجب أن نترك لها فجوة للدخول بيننا توجهنا إلى السيارة على شكل دائرة حول المرأة الكويتية وطفلها الجريح دخلت السيدة إلى السيارة أولاً.. ثم زوجها ثم ساعد زميلى العراقى الجريح فأركبه.. وركب زميلى.. استدرت حول السيارة وأنا أمسك بمشعلان أدافع بهما عن نفسى حتى

استطعت فتح الباب الرئيسى وركبت.. حين أغلقت الباب.. قفزت الذئاب على السيارة تقضمها فى غيظ ووحشية.. وأدرت السيارة.. وأسرعنا جميعاً.. إذن فقد نجونا... وعلا صوت السيارة الهاربة تزمجر تحت ضوء آبار البترول المشتعلة.. ولكن لم تعلُ زمجرتها أبداً على صوت الذئاب الغاضبة.

مقابلة

جاءتنا معلومات عن فلول من الجنود العراقيين فى شمال الكويت- وصدرت لنا الأوامر بمطاردتها والتعامل معها، خرجت كتيبتنا المصرية فى مجموعات متجهين إلى تلك المنطقة لتمشيطها. كانت الشمس تخفى وجهها خجلاً خلف سحابة الدخان الأسود الكثيف فى ذلك الصباح الحزين. ولم نكن لنسمع إلا بقايا أصوات طلقات متفرقة، تشبه عواء ذئاب بعيدة فى الصحراء.

كنت أسير فى مؤخرة الجماعة على حذر، ويدى على سلاحى متربصاً، مشبعاً بطعم الذنب الكبير.

جو خانق كئيب يحيط بنا وصمت باك يحيط بالمنطقة، تنظر إلينا نوافذ المنازل كالشاكية، والأبواب مفتوح معظمها، تلفظ بعض الأثاث المبعثر كالجثث على الدرجات، ثمت منى التفاتة إلى أحد البيوت، شاهدت حركة ما، دققت النظر وأمعنته، إنه أحد الجنود العراقيين. اتجهت إليه على حذر، لمحنى فأسرع وقفز فوق جدار البيت هارباً، أسرعت خلفه قافزا الجدار، اختفى فى مكان ما، جُلت بنظرى بين قطع الأثاث المتناثر فى الحديقة، ها هو يظهر فجأة ويطلق عدة طلقات نحوى، ألقيت بنفسى على الأرض منبطحاً، مرت الطلقات بجانبى ارتطمت بالجدار فنهشته بعنف، لقد كادت الطلقات تصيبنى، نهضت على ركبتى وأطلقت عليه طلقة تهديد مرت بجوار خوذته، انتفض برعب، وأطلق مجموعة طلقات أخرى، صرخت بجوار أذنى، فأحسست بغضب شديد، حينما نهض مسرعاً، وركض مرة أخرى، فأسرعت خلفه فى ذلك النهار المظلم، واستطعت أن أقترب منه كثيراً، محاولا حماية نفسى بقدر الإمكان من طلقاته المجنونة.

هرب، قفز فوق سيارة، ثم أخرى، ثم اختفى خلف أحد المبانى، ركضت خلفه بأقصى ما لدى من سرعة، خفت جدا أن يهرب منى، لا يمكن أن أتركه يهرب منى، لا يمكن أبداً، كدت أصيبه، ولكن طلقاته كانت تأتينى فى مجموعات تصرخ ككلب مسعور، قفزت واقفاً

فوق السور، جاءت طلقاته فأصابت السور، فانهدم بعضه تحت قدمي، ألقيت بنفسي إلى الأرض، وتدحرجت بسرعة، إلى أن اختفيت خلف بقية السور المتهدم. كنا قد ابتعدنا عن بقية مجموعتي كثيراً، رقدت صامتاً أراقب حركته.

أين هو؟ جُلت ببصري في حرص شديد، نعم هاهو، هناك خلف أحد المباني المتهدمة، إنه يتحرك في عصبية غريبة، كان الطريق يفصل بيني وبينه كنت أرى ساقيه بوضوح من فتحات المبنى السفلية، سأصيبه في غير مقتل، حتى يمكن أن أقوم بأسره.

في اللحظة التي صوبت فيها، أقبلت سيارة خاصة مسرعة مزعورة متجهة إلى الجنوب، في تلك اللحظة ظهر الجندي العراقي مصوبا سلاحه ناحيتي وأطلق عدة أعيرة، كانت السيارة بيني وبينه في نفس اللحظة، أصابت طلقاته إطار السيارة الأمامي، فانفجر، وزعقت السيارة وصاحت الإطارات ودارت السيارة حول نفسها، ثم مالبثت أن ارتطمت بالرصيف وصعدت عليه ثم نزلت عنه منحرفة بقوة، فانقلبت جانباً، ثم انزلقت عدة أمتار، وما لبثت أن انقلبت رأساً على عقب، وزحفت محدثة شرارات كثيرة على أرض الشارع الأسفلتي، وارتطمت أخيراً بأحد المنازل فاستقرت وهي تئن وتزحر* وكأنها

- تزحر: تخرج صوتها بأنين أو بشدة

دجاجة* ذبيحة. وبدأت النيران تلتهمها شيئاً فشيئاً.

دققت النظر بالسيارة اطمئناناً على سائقها. فلاحظت حركة ما. إذن فالسائق مازال حياً. وهنا سمعت صوت طفل صغير يصرخ من داخل السيارة كانت النيران تتحرك ببطء في جسم السيارة. وكأنها تبحث عن شيء ما. لم أتمالك نفسي. خرجت من مكمني. وظهرت معرضا نفسي لطلقات الجندي الآخر. كان يجب التحرك بسرعة. فأسرعت بأقصى ما لدى من قوة تجاه السيارة. كانت طلقاته ترتطم على أرض الطريق حول قدمي. تحركت بشكل متعرج. كان صراخ الطفل أعلى صوتاً في أذني من طلقاته. ودعوت الله أن أصل إلى الطفل قبل أن أصاب. دعوت الله أن أجده. قبل أن تجده ألسنة النار المتحسسة لجسم السيارة في شبق* شديد. تناسيت الجندي العراقي. لم يعد يمثل لي أية أولوية الآن.

وصلت السيارة المقلوبة. وانزلقت بجانبها. ومددت يدي إلى داخلها صائحاً: "أعطني يدك.. هيا.. بسرعة.. هيا.. لا تخف".

يد صغيرة. بيضاء. غضة. ظهرت من خلال الدخان

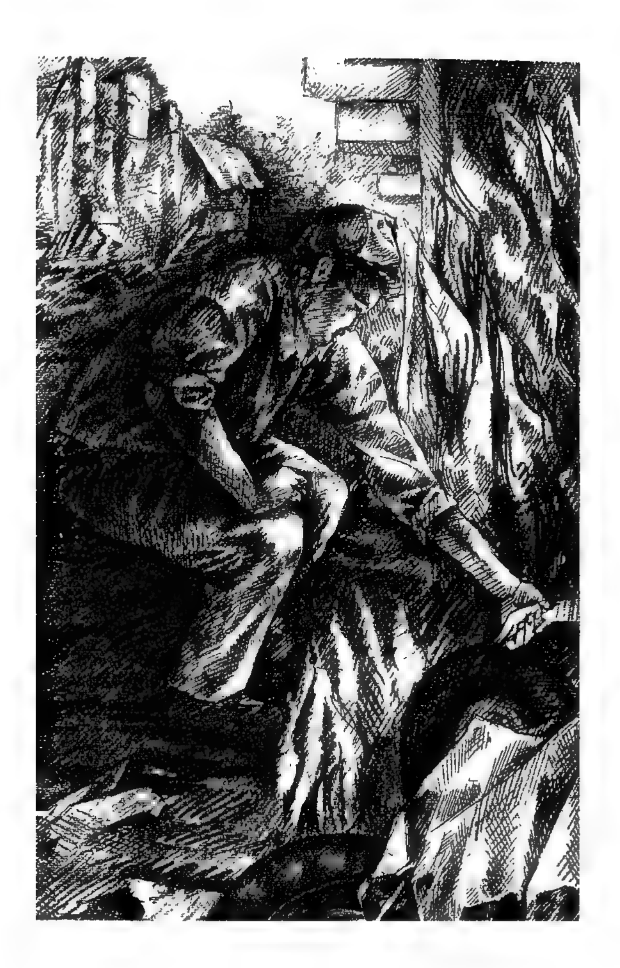
- كأنها دجاجة: تشبيه مخلوق مغلوب من جهه القوة أو الشدة

- شبق: الشبق شدة الشوق والنشوة والإستعمال هنا على سبيل المجاز لا الحقيقة.

وتعلقت بأصابعى، أطبقت يدى على ذراعه، وسحبته بكل قوة. واحتضنته. طفل صغير فى الثالثة أو الرابعة من عمره. يرتدى جلباباً أبيضَ نظيفا. نظرت من خلف رأسه باحثاً عن قائد السيارة لقد كانت امرأة كويتية. ترتدى ثياباً سوداء. قال الصغير: "أمى" . لم ألاحظ أن طلقات الجندى العراقى قد توقفت. مددت يدى أسحب المرأة. يبدو أنها مصابة إصابة شديدة. لقد كان لون الدم الأحمر على ثوبها الأسود يئن بكآبة شديدة.. وما زالت ألسنة اللهب. تحت الخطى. لاهثة. باحثة عن الضحية. كانت المرأة ثقيلة.. ربما كانت محشورة. أردت سحبها بشدة. فتأوهت. إنها مازالت حية. حمدت الله. يجب إخراجها بسرعة. يالثقلها. وضعت قدمى على جسم السيارة كمتاريس. وسحبت. مازالت ثقيلة. يبدو أن ألسنة اللهب قد رأتها. فاتجهت إليها مسرعة. وهى تلهث بصوت غريب.

أحسست بجسم صلب ينحشر فى مؤخرة رأسى. إنها. فوهة سلاح. صرخ بى صوت خشن "ارفع يديك". لم أجبه. ظللت أحاول إخراج السيدة. صاح الجندى العراقى مرة أخرى بصوته الخشن". ارفع يديك.. هيا".. كان اللهب يلفح وجهى بشدة وكأنه يصرخ معه. وكأنهما يقولان سوياً: "ارفع يديك.. هذه فريستى".

تملكنى الغضب مرة أخرى ولم أجبهما.. أصررت على



محاولة فتح نافذة السيارة. كى أفسح لجسم المرأة مكاناً أخرجه منه.. يبدو أنه سيحاول إطلاق النار الآن.. فوهة السلاح مازالت فى مؤخرة رأسى تؤلمنى.. كلا. لن أترك الأم لتلتهمها النار.. يجب العمل بسرعة، السيارة على وشك الانفجار. شعرت أن النار قد استدعت ما يساعدها.. إن الوقود بدأ يسيل من السيارة، ويقترب رويداً رويداً من موقع اللهب، يجب الإسراع.. أتوقع الرصاصة تفجر رأسى فى أية لحظة.. دعوت الله ألا يفعلها قبل إخراج الأم من بين الحطام. كنت أعمل جاهداً لفتح نافذة السيارة. وفى نفس الوقت أسحب المرأة المصابة. وفجأة رأيت يداً تمتد وتمسك بكتف المرأة محاولة سحبها معى، تحركت عيناى بسرعة جهة صاحب تلك اليد. كان الجندى العراقى تقابل، وجهانا معاً فى نفس اللحظة لقد كان صارماً مكفهرًا مقطب الجبين ذا شارب.. وحاجبين مقرونين ثقيلين.

وضع سلاحه على كتفه.. ومد يده الأخرى ممسكاً بالمرأة بشدة، فانفتح الباب، مازالت النار غضبى، تصرخ وتولول، نحن نكاد نستولى على فريستها، مازالت تستدعى الوقود لمساعدتها، قلت للجندى العراقى بصوت غريب :

– "احذر إنها مصابة فى رقبتها.. دمها قد لوث يديك.. بسرعة " قلت له ذلك دون أن أنظر إليه، فقد

كنت أدخل يدى تحت جسدها لسحبها برفق، أخيراً سحبنا المرأة سوياً وأخرجناها من حطام السيارة، سقط ثلاثتنا على الأرض بشكل متواز.. مازالت النار تصرخ غاضبة، أقسمت أن تلتهمنا جميعاً. الوقود يسرع إليها... عرف غضبها.. إنها فى حاجة إليه.. أسرع إليها ثم أسرع. قال الجندى العراقى "بسرعة" فأجبته "هيا" إحتضنت الأم الطفل ورفعنا السيدة وركضنا، أمسكناها بشدة، وبنظرة متبادلة بيننا، وبكل ما لدينا من قوة، قفزنا مرة واحدة خلف الجدار حاملين الطفل وأمه، صرخت النار بالسيارة فى غيظ شديد.. فجرتها.. ثم تركتها وارتفعت فى السماء، كالمارد باحثة عنا.. كنا قد ابتعدنا.

"ولدى" قالت الأم بصوت ضعيف، فأجبتها: "لا تخافى إنه بخير" وقال الطفل بحروف متعثرة صغيرة:

- "أنتم مصريون"

أسرعت نظرة متبادلة.. متسائلة بينى وبين الجندى العراقى.. ولم نجبه.

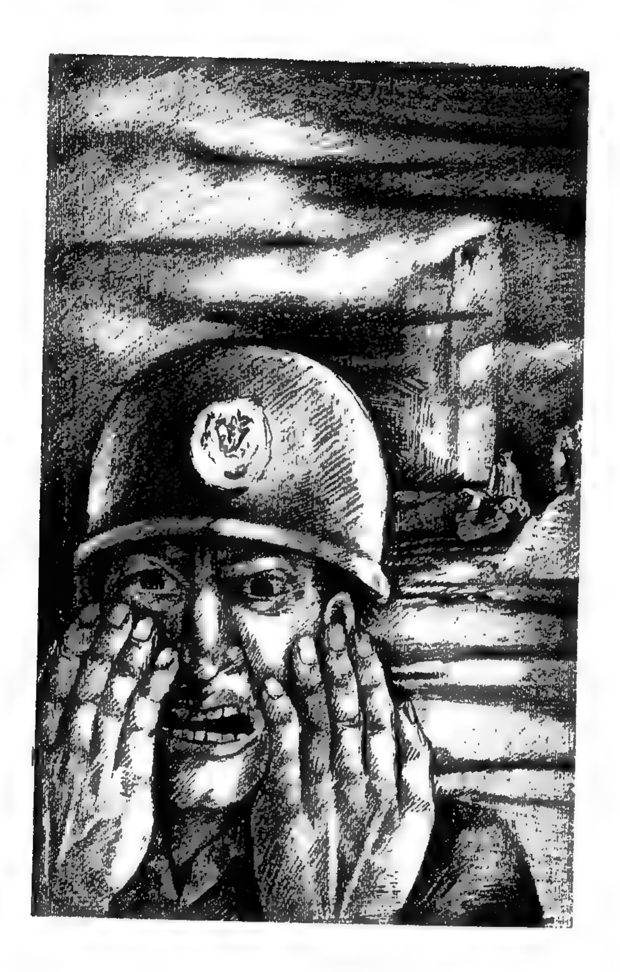
قالت الأم حينما سمعت صوت ولدها: "الحمد لله"، ثم أغلقت عينيها، الدم ينزف بشدة من رقبتها، تأوهت، ثم فتحت عينيها على اتساعهما، وكأنها ترى شيئاً ما، لم تره من قبل، شيئاً ما رهيبا، شهقت بقوة.. ثم.. أسلمت الروح، رفعت إصبعى للشهادة

وحينما بدأت فى تلاوتها سمعت كما لو كان صدى صوتى يقولها بنفس الحروف، ونفس الإيقاع، ونفس الترتيل: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.. إنا لله وإنا إليه راجعون" قالها معى الجندى العراقى نطقناها سوياً، ماتت المرأة الكويتية، نظرت إلى الجندى العراقى فى غضب.. انفجرت لغة عينىّ تقول الكثير والكثير ولكن الجندى العراقى كان مشغولاً فى تلك اللحظة.. كان ينظر فى رعب شديد، وهو مفتح العينين عن آخرهما، إلى يديه اللتين كان يرفعهما أمام وجهه، وهما مخضبتان بالدماء.. دماء المرأة الكويتية كان ينظر إلى الدماء فى يديه وكأنها نيران تلتهمهما.. الألم والغضب والذنب.. والتساؤل.. والجهل، وكانت تتصارع على ملامح وجهه.

لاحظ الطفل رعب الرجل من شكل الدماء على يديه.. مد الطفل يده الصغيرة، ورفع طرف ثوبه الأبيض، وجعل يمسح الدماء من على يدى الرجل الضخمتين، مؤنباً له "لابد أن تنظف يديك، ستغضب منك أمى".

كانت عيناى تصرخ فى الرجل بكل ما يمكن قوله، أجابها وهو مازال ينظر إلى يديه، اللتين لم تستطع يد الطفل محو الدماء عنهما:

- "أنا مجند.. أنا.. أنا مجرد مجند بالجيش.. ليس لى



ذنب.. أنا لست صدام.. هل تفهم؟"

صرخ بألم شديد"لابد أن تفهم".

أدركت وجهى محاولاً تغطية وجه السيدة المذبوحة بعباءتها. أحسست بيد الطفل ترتكز على كتفى وهو يئن مرتعشاً "لماذا أمى نائمة؟"

فاحتضنته بشدة قائلاً:

- "لا تخف يا بنى لا تخف"

وتركت عيناى جسد الأم المسجاة على الأرض. وتحركت باحثة عن الجندى العراقى كى تلتهمه.. ولكنى لم أجده بجانبى.. بحثت.. فإذا ببقايا خطواته تختفى فزعه.. منكسرة. خلف الدخان الأسود المنبعث من السيارة الكويتية المحترقة فى ظلام النهار المصاب.

لقاء من نوع آخر

لم تتجاوز الساعة العاشرة صباحاً، إلا أن "ناصر" الطفل الكويتى الصغير ذو العشر سنوات يشعر بملل شديد، وشىء من كآبة. انتقل إليه عن الإحساس العام لجو البلدة التى تهدم معظمها.. والحرارة الشديدة.. والرطوبة العالية.. حيث لا توجد كهرباءٌ لتشغيل أى من المكيفات أو المراوح فى بيت عمه "جابر"- الذى انتقلوا إليه منذ عدة أيام للإقامة عنده هو ووالده وأخته الصغيرة "دانة" .

عدم وجود دراسة فى تلك الأيام وإغلاق المدارس جعل فى نفس "ناصر" شيئا ثقيلا يصحو معه يومياً ويلازمه حتى موعد نومه.. إنه الملل.. الملل الكبير لم يكن يملك إلا أن يسير وحيدا فى طرقات البلدة المهدمة رغم تحذيرات ذويه* بعدم الخروج.. كان والده وعمه وابنا عمه الكبيران قد انضموا إلى ما يسمى بالمقاومة الشعبية- أو شىء من هذا القبيل- لهذا السبب (المهم) لم تغادر أسرة "ناصر" الكويت هرباً من الغزو كما فعل معظم زملاؤه بل ظلوا... للمقاومة.

جلس "ناصر" أمام باب البيت وهو يعبث بعصا صغيرة فى الرمال يرسم أشياء وأشياء ويمحوها.. ويعود فيرسمها.. ألقى بالعصا جانباً.. ونهض والحَرّ يخنقه وسار إلى آخر الطريق مراقباً... بعض الدبابات والسيارات المصفحة التى تعبر عن بعد شديد الطريق الدائرى البعيد..

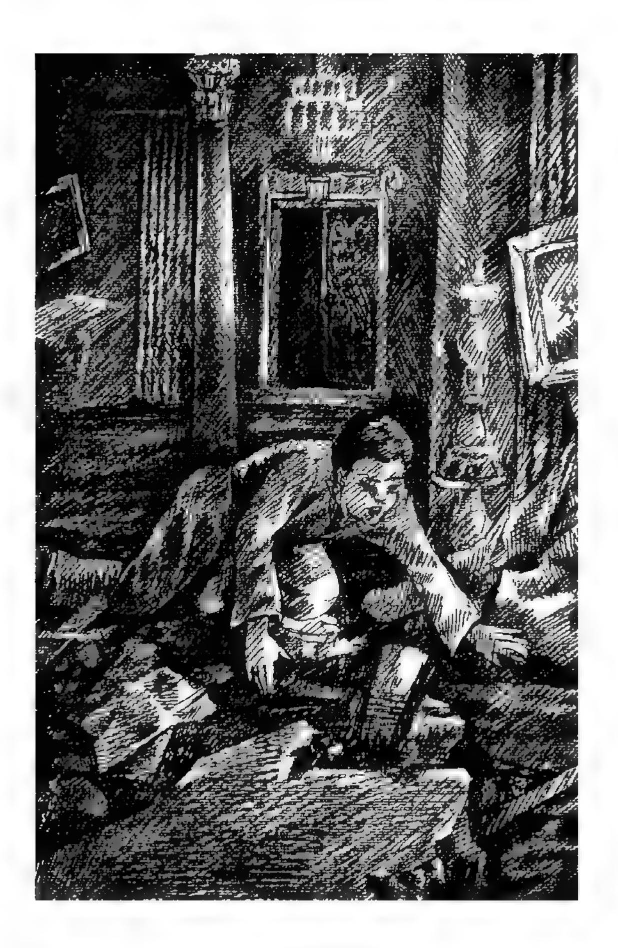
كان حجم الأنقاض كبيراً جداً معظم المنازل قد هدم.. منازل زملائه واقربائه.. معظمها قد هدم.. هذا بيت "أحمد" وهذه فيلا "فهد"، لقد كانت فيلا ضخمة.. كم تمنى دخولها وهاهى الآن خاوية مهدمة.. لماذا لا يدخلها الآن؟ ولم لا؟.

- ذويه: أصحابه، أصدقاء كانا أو قرابة له.

دخل "ناصر" إلى الفيلا الضخمة.. مازال الأثاث الراقى فى مكانه.. ولكن غلالةً* رمادية اللون محت الألوان تماماً.. لا توجد أى ألوان سوى الرمادى الكئيب.. لون الأتربة والدخان يغلف كل شىء.. وكان الأثاث الفاخر يبدو له مريضاً.. كئيباً.. حزيناً.. وربما ميتاً بلا روح أو حياة.. لم يكمل "ناصر" جولته فى الفيلا.. لم يعد يرى فيها أى جمال.. أى شكل.. أى شىء.. سوى كآبة تشبه الموت.. خرج "ناصر" من الفيلا التى قد تهدم نصفها تماماً.. دار ناصر حول الجانب المصاب المهدم.. الجريح.. صمْت غريب يحيط بالمكان.. رغم عدم سطوع الشمس واختفائها خلف سحب الدخان السوداء منذ أسابيع إلا أن الحر كان يلفح وجهه بشدة.. وكأن الأنقاض قد تحولت إلى فرن يخرج ناراً ويزفر جحيماً.

حينما هم "ناصرُ" بالانصراف.. لاحظ وجود طرف سلاح يخرج من بين الأنقاض.. إنه سلاح حقاً.. تقدم "ناصر" لسحب السلاح من تحت الأنقاض.. كان السلاح محشوراً جداً.. رفع بعض الأحجار.. استطاع أن يستخلص السلاح إنه محطم تماماً.. لا يصلح.. فجأة

- غلالة: الغلالة ثوب رقيق يلبس تحت الدنار (هذا أصل المعنى) ولكن المقصود هنا طبقة الأتربة الرمادية التى أشبهت الغلالة سترت الأثاث "فالمعنى مجازى".



رأى ناصر حذاء ضخماً.. حذاء جندى.. يبدو له ضخماً جداً.. أراد "ناصر" سحب الحذاء من تحت الأنقاض.. ولكن جسده سرت فيه قشعريرة رعب شديد.. إنه ليس حذاء فقط بل قدم.. قدم آدمية داخل الحذاء.. قفز متراجعاً إلى الخلف.. أراد الهروب.. ولكن شيئاً ماجعله يتقدم مرة أخرى.. تحسس القدم.. إنه.. دافىء.. غير معقول يوجد إنسان حى هنا تحت الأنقاض.. حتماً إن صاحب الحذاء لم يمت وإلا كان الآن بارداً.. شىء ما سرى فى أعضائه جعله يعمل بشكل آلىٍّ غريب للإسراع برفع الأنقاض ظهر الساق.. يبدو أنه جندى.. هذه ملابس جنود. كان باقى الجسد يرقد تحت كتلة ضخمة جداً من سقف الفيلا سقطت بشكل مائل.. هو تحتها.. معظم الجسد.. لو سقطت عليه لكانت حطمته تماماً..

وجد ناصر فسحة* إنزلق منها زاحفاً إلى الداخل تحت الأنقاض.. المكان ليس متسعاً تماماً.. وضع "ناصر" رأسه على صدر الجندى.. مازال قلبه يدق!! مازال يتنفس!!.. إنه حى ولكنه فاقد الوعى.. توجد آثار دماء على أصابعه وعلى وجهه.. يبدو أنه حاول شق طريقه للخروج ولم يفلح.. تفحص* "ناصر" جسد الجندى..

- فسحة: مكان متسع.
- تفحص: فحص بإهتمام. والتاء للطلب أى كأن طلب من نفسه وعقله زيادة فى الفحص.

ليس به شيء.. حتى وصل إلى ساقه الأخرى.. ويا لهول ما رأى إنها مكسورة تماماً وملتوية تحت جسده.. جاهد "ناصر" وقام بعدل الساق على امتدادها.. المكان خانق*.. كان العرق يتصبب منه بشكل غزير.. يكاد يعمى عينيه.. كان العرق يدخل إليهما فيشعر بألم شديد داخل عينيه.. وكلما مسحهما بيده عاد العرق إليهما.. لابد من الخروج من هذا المكان الخانق ولكنه لن يترك هذا الرجل المصاب.. فخرج مسرعاً.. تنفس ملأ رئتيه رغم أن الهواء شديد الحرارة إلا أنه شعر بإرتياح فى رئتيه.. أسرع "ناصر" إلى البيت.. كانت الأسرة تجلس فى الصالون.. الرجال يتحدثون فى شيء ما.. ابن عمه الكبير يشيح بيديه* فى عصبية.. لم يلتفت إليه أحد. دخل إلى المطبخ.. ماذا يفعل؟ أحضر إناء مملوءاً بالماء.. وماذا بعد؟ نعم.. بعض الأربطة أين هى؟.. إنها فى الحمام فى الدور العلوى ترك الإناء وصعد مسرعاً ."أين كنت؟" فاجأته أخته الصغيرة ذات الثمانية أعوام وهو صاعد.. لم يجبها دخل الحمام وأخذ الأربطة.

- "ماذا تفعل يا "ناصر"؟" "ما هذا الذى فى يديك؟"

- خانق: مكان ضيق بين مكانين مرتفعين يكون الهواء فيه قليلاً. فيتسبب فى الإختناق أى الموت نتيجة قلة الهواء.
- يشيح بيديه: حرك يديه ولوّح بهما مبدياً كرهاً اعتراضاً.

أسرع السلم هابطاً.. أسرعت خلفه "ماذا بك؟ قل لى." "المطهر نسى المطهر".. صعد مرة أخرى أخرج المطهر من الصيدلية.. أخته "دانه" خلفه فى كل حركاته.

- " هل أنت مريض؟ قل لى ماذا بك؟"

لم يكن أمامه كى يسكتها سوى أن يصرخ بها:

- "اسكتى هذا ليس شغلك.. إذهبى عنى."

شعرت الطفلة بالخوف فانزوت بسرعة فى ركن غرفتها.. نزل "ناصر" وهو مبتسمٌ.. لأنه استطاع أن يبعدها عنه بأسئلتها المملة*.. اتجه مرة أخرى إلى المطبخ. قابل زوجة عمه على باب المطبخ

- "ماذا تريد يا "ناصر".. هل أنت جائع. هل أحضر لك شيئاً؟"

أجابها بعد أن قلل حركته وتظاهر بالملل:

- "كلا.. أردت أن أشرب فقط"

خرجت زوجة عمه من المطبخ.. فأسرع وأخذ إناء الماء وأخذ معه الأربطة والمطهر.. وأسرع خارجاً.. لم يلاحظ أن أخته "دانة" كانت تراقبه من النافذة وهى دامعة.. حتى اختفى فى إنحناءة الطريق.

- المُملّة: فعلها مَلّ ومعناه سئم. يعنى كرهه ولم يعد فى نفسه باعثٌ على فعله.

وضع "ناصر" ما معه على الأرض وانتزع قطعة خشبية من إحدى النوافذ المحطمة.. لابد من عمل جبيرة لساق الرجل.. عاد "ناصر" إلى الرجل وعمل "ناصر" بجد وأزاح معظم الأحجار والأتربة من حول جسده.. وأخرج كل شيء من تحت الكتلة الخرسانية التي صارت الآن كمظلة أوسقف يحميهما من الحر الشديد..

بجهد شديد استطاع "ناصر" تمزيق الملابس عن ساق الرجل وظهر الكسر الآن واضحاً. أراد "ناصر وضع الساق فوق القطعة الخشبية..نمت* من الرجل آهه مكتومة واهنة من شدة الألم.. قام "ناصر" بتطهير الجرح جيداً ثم قام بعمل جبيرة على أكمل وجه للساق المكسور.. ونهض واتجه إلى رأس الجندي ورفعها.. وقام بسقيه.. إرتشف الرجل قليلا من الماء.. دون أن يشعر.. وما لبث "ناصر" أن انتفض.. وقفز متراجعاً إلى ركن المكان الضيق.. "يا للهول إنه.. إنه جندي عراقي.. يا ويلي ماذا أفعل.. لو أفاق سيذبحني.. ماذا أفعل؟.. تمتم* "ناصر" لنفسه في رعب شديد.. وخيل إليه أن الجندي يتكلم.. اقترب منه في حذر إنه

- نَمَتْ: زادت وكثرت، وهو يدل على أن الآهة خرجت بجهد، لأنها متدرجة من إحساس في نفسه إلى لفظ لا يكاد يسمع إلى آهة تسمع بصعوبة أو كما يقالُ بشق الأنفسً.

- تمتم: ردد في الكلام التاء والميم فلا يكاد يُفهم.

حقاً يتمتم بصوت واهن.. ماذا يقول؟.. إقترب أكثر.. وضع أذنه قرب فمه.. ماذا يقول؟.. "ماء" يبدو أنه يقول ماء.. صمت الجندى أو حتى فقد الوعى.. ولكنه بعد قليل تمتم مرة أخرى إقترب " ناصر".. ماذا يقول؟.. "ماء.. ماء.. بعض الماء" أسرع "ناصر" ووضع الإناء على فم الجندى بعد أن رفع رأسه قليلاً.. إرتشف* الجندى هذه المرة كمية أكبر من الماء.. ثم سقط فاقدا الوعى مرة أخرى.

جلس "ناصر" يراقبه فى صمت.. إنه لا يتحرك.. ماذا أفعل الآن؟ لو رآه أحد رجال المقاومة لن يتوانى عن قتله فى الحال.. ماذا أفعل؟ يجب إخفاءه.. إنه يتألم.. الكسر مؤلم جداً.. لقد جربته العام الماضى كسر لى صديقى ذراعى ونحن نلعب الكرة.. لم أكن أستطيع النوم فى تلك الأيام. الكسر مؤلم حقاً.. وهذا كسر شديد.. لابد انه شديد الوطأة*.. إن الجندى يتألم الآن بشدة.. إنه يئن* بضعف من شدة الألم.. إنه شديد الضعف.. جلس "ناصر" يراقب الجندى فى صمت. يبدو أن عينيه قد غفلتا قليلاً ثمَّ إنه انتفض فجأة.. على صوت أخته "دانة":

- إرتشف: إمْتَصَّ. فيه بيان لصعوبة أن يبلع الماء كما يفعل الصحيح.

- الوطأة: الضغطة والأخذة الشديدة.

- "ناصر".. "ناصر" أين أنت؟" "إننى أعرف أنك هنا.. يا "ناصر".. أين أنت؟.. ماذا تفعل عندك تحت الأنقاض؟.."

خرج "ناصر" مسرعاً... وصرخ بها..

- "إذهبى إلى البيت حالاً هيا"

قالت له فى خوف:

- "كلا لن أذهب.. لا أحد يلعب معى بالبيت.. سأظل معك"

فقال لها فى إصرار "كلا.. هذا مستحيل.. لا يمكن أن تظلى معى" فتساءلت فى توجس*:

- "لماذا؟ ماذا يوجد هنا؟ أخبرنى ماذا تخفى هنا؟"

وحاولت الإقتراب.. فإعترضها بيديه قائلاً:

- "لا شىء لا يوجود شىء هنا.. هيا إذهبى وإلا ضربتك."

فإذا بها تقف له فى تحدٍ طفولى غريب:

- "كلا.. لن أذهب.. لا بد أن أعرف ماذا تخفى هنا.. إن لم تخبرنى سأذهب لأخبر أبى عنك" أسقطَ فى يد*

"ناصر".. جلس صامتاً فجلست أخته "دانة" بجواره وسألته في صوت أقل حدة:

- "هيه* ماذا قلت؟"

فنظر إليها بهدوء وتوسل:

- "سأخبرك ولكن عديني ألا تخبري أحدا.. هيا.. عديني بذلك."

فابتسمت "دانة" ونهضت وسبقته إلى الفتحة وهي تقول "أعدك.. أعدك.. ماذا عندك هنا.."

جلست "دانة" على ركبتيها تحت الكتلة الخرسانية تنظر إلى الجندي فاغرة فاها.. وزحف "ناصر" إلى جوارها وجلس في صمت.

- "من هذا يا "ناصر"؟ ماذا به.. هل هو ميت؟.. إني خائفة.."

ربت "ناصر" على كتفها وأمسك بيدها الصغيرة مطمئناً:

- "لا تخافي.. إنه لم يمت.. إنه جريح.. عنده كسر في ساقه.. لقد عملت له جبيرة".

مسحت "دانة" بيدها الصغيرة على وجه الجندي الضخم قائلة :

- هيه: كلمة تقال للإستزادة من الكلام.

- "مسكين.. لابد أنه يتألم.. يبدو عليه الطيبة.. لابد أنه رجل طيب."

فقال "ناصر" وهو ينظر إلى خارج المكان:

- "إنه جندى عراقى"

صرخت "دانة" وتراجعت خوفاً ورعباً.. ثم تفرست فى الوجه الصامت.... تفرست فى الوجه فى صمت.. وبحذر شديد هذه المرة.. مدت يدها وتحسست بأصابعها وجه الرجل.. عينيه وأنفه وفمه" ولكنى مازلت أرى أنه رجل طيب.. كيف تقول أنه جندى عراقى؟.. أنت كاذب".

صمت الاثنان.. مازالا يراقبان الرجل الذى كان يئن بوهن* شديد صاحت "دانة" فجأة:

- لابد أنه جائع.. أنا جوعانة.. لنذهب ونحضر له بعض الطعام"

إبتسم "ناصر".. وقرص* أخته "دانة" فى خدها.. وأسرعا بالخروج. توقفت "دانة" فجأة "لابد من إخفائه.. لقد سمعت ابن عمى يصرخ ويقول انه سيقتل كل عراقى يراه.. أرجوك هيا نخفى هذا المكان!!"

- بوهن: بضعف.

- قَرَصَ: قبض بإبهامه سبابته على جزءٍ من جسمه قبضاً شديداً مؤلماً.

مرة أخرى ابتسم "ناصر".. وقاما بسحب أحد الأبواب الخشبية وأخفيا به المدخل وزيادة فى التمويه وضعا على الباب المكسور عدة أحجار وبعض الأتربة.

صوت قوى صاح بهما فجأة بعنف "أنتما.. تعاليا هنا.. ماذا تفعلان عندكما؟" إنتفض الاثنان.. إنهم بعض رجال المقاومة.. تشجع "ناصر" قليلاً "أنا "ناصر" وهذه أختى "دانة".. نحن نقيم آخر الشارع. لقدكنا نلعب."

صاح الرجل فيهما:

- "كيف يترككما ذووكما للعب فى هذه الظروف.. هل جن أهلكما؟ هيا.. هيا بسرعة إلى البيت المكان مازال مملوءاً بالجنود العراقيين.. لو رآكما أحدهم سيقوم بذبحكما فوراً.. هيا.. أسرعا"

إنطلق "ناصر" و"دانة".. إلى البيت فى حالة من الرعب الشديد.. كان تحذير الرجل مرعباً بشكل غريب.

- "ماذا بكما أين كنتما؟ لماذا تنتفضان هكذا؟" كانت تلك أسئلة أمهما.. حين دخلا البيت. فأجابت "دانة"

- "لا شيء كنا بالخارج على الباب.. وصرخ بنا* أحد رجال المقاومة أن ندخل ولا نخرج مرة أخرى قالت الأم:

- صرخ بنا: صاح ورفع صوته بنا أو فينا صياحاً شديداً.

- "عنده حق لا تخرجا مرة أخرى. العراقيون لم يرحلوا كلهم بعد.. مازالت فلول* منهم فى البلدة إن رآكما أحدهم سيذبحكما.. تساءلت "دانة" بعينيها الواسعتين الجميلتين

- "ولماذا؟.. لماذا يا أمى يذبحنا.. نحن أطفال.. نحن لم نفعل شراً بأحد"

زمجرت* الأم وهى توصيهم بعدم الخروج إلى الشارع وابتعدت إلى عملها وهى تتمتم "يجب السفر بهما غداً إلى المملكة السعودية.. البلد هنا خطر علينا.. غداً سنسافر".

"ما العمل الآن؟!! تساءل "ناصر" هل يتركا الجندى الجريح. انه لابد وأن يموت فى هذا المكان إن لم يحضرا له الطعام والشراب.. لا يمكن أن يتركاه كى يموت.. مازالت "دانة" تعتقد انه رجل طيب.. أسرعت "دانة" خلف أمها "أمى.. أمى.. أنا جائعة"

- "حسناً.. تعالى معى إلى المطبخ" قالت الأم دون أن تلتفت إليها.. فقالت "دانة" وهى تتبعها بخطوات قافزة:

- "و "ناصر" أيضاً.. انه جوعان.. اصنعى لنا يا أمى كمية كبيرة من الشطائر.. وبعض العصائر كذلك"

- زمْجَرَت: رددت صوتها فى صدرها كان فيه غِلَظ.

نظرت الأم إلى ابنتها الصغيرة فى تعجب ثم هزت كتفيها.. قائلة "وما سبب فتح شهيتكما هكذا فجأة؟.. إن أمركما عجيب" أعدت الأم الشطائر والعصائر ووضعتهما على طاولة الطعام قائلة:

- "هيا.. انهيا طعامكما بسرعة.. واصعدا إلى غرفتيكما.. هيا."

قال "ناصر" : "كلا يا أمى سوف نأكل الطعام فى الغرفة.. إن والدى والرجال يتحدثون بصوت عال ولا نريد إشغالهما"..

أخذ الصغيران الطعام وصعدا إلى الغرفة.. ما العمل الآن. فكرت "دانة" قائلة لناصر: "انزل أنت إلى الحديقة وسأنزل لك الطعام من النافذة..

وضع الاثنان الطعام والعصائر فى حقيبة المدرسة الخاصة بدانة.. ثم ربطاها بحبل ونزل "ناصر" وتسلل خارج البيت دون أن يراه أحد.. أنزلت "دانة" الحقيبة من النافذة وأخذها "ناصر". نزلت "دانة" فى تأنى وهى تغنى.. قابلتها أمها سائلة: " لماذا لم تأكلى؟"

- "لقد أكلت يا أمى.. الحمد لله"

توقفت الأم متعجبة: "ماذا؟. بهذه السرعة؟.. إن حالكما عجيب اليوم.."

وتركتها الأم.. تلكأت* الطفلة قليلاً.. حول الرجال.. ثم

- تلكأت: تباطأت وتوقفت.

اتجهت ناحية الباب وجلست بجواره قليلاً.. ثم تسللت إلى الخارج وأطلقت ساقيها للريح.. أدركت أخاها فى منتصف الطريق.. تأبطت ذراعه* فى نشوة غريبة وأسرعا إلى سرهما الكبير.. جلس "ناصر" ليخرج الطعام من الحقيبة.. وعكفت* "دانة" تنظف يد الجندى الضخمة من الدماء والرمل الملصق بهما.

شعر الرجل بشىء غريب.. انتبه.. فتح عينيه.. هناك شىء غريب يحدث، شخص ما يحاول قتله أو سرقته.. حركة غريبة شعربها حوله.. شعر بالخوف والخطر أدخل يده إلى ملابسه.. دون أن يراه أحد.. كانت عيناه تجولان*ان× فى خوف ورعب. أخرج سكيناً كبيراً من ملابسه.. فجأة جذب الجندى "ناصر" بشدة وشل حركته ووضع السكين على رقبته صارخاً: "خونة.. كلاب". عقدت المفاجأة لسان "ناصر".. فتح عينيه عن آخرهما.. قفزت "دانة" إلى الخلف.. دون تفكير.. وربما بحركة لا إرادية.. وبكل ما فيها من قوة ضربت بقدمها ساق الجندى المصابة مما أدى إلى أن صرخ الجندى من الألم وترك "ناصر" الذى ابتعد مسرعاً عنه.. جلس الاثنان يرتجفان* فى ركن المكان.. كان الجندى يزمجر..

- تأبطت ذراعه: وضعت تحت إبطها.

- عكفت: أقبلت ولزمت "أى كان فى عملها عزمٌ واستمرار".

- تجولان: طاف غير مستقر طاف يحمل معنى الدوران بمعنى دارت عيناه فى إتجاهات مختلفة من الخوف.

- يرتجفان: يتحركان ويضطربان اضطراباً شديداً.

ويمد يده بالسكين.. محاولاً الوصول إليهما لإصابتهما عدة مرات.. لم يكن يستطيع الوصول إليهما.. وهنت حركته.. مازال "ناصر" يحتضن أخته* التى كانت تبكى فى صمت.. كانت ساق الرجل المصابة قد تحركت والتوت مرة أخرى تحته نتيجة حركته العنيفة المفاجئة.. تألم الرجل بشدة.. زحف "ناصر" تجاه ساق الرجل.. حاول الرجل الوصول إليه بالسكين مرة أخرى.. ارتد "ناصر" إلى الخلف.. حاول الرجل الجلوس للوصول إليه بالسكين مرة أخرى.. آلمته ساقه.. صرخ بشدة.. وارتمى على الأرض.. تحرك "ناصر" مرة أخرى ليصلح من وضع ساقه.. سقط السكين من يد الرجل.. أسرعت "دانة" فالتقطتها.. أسرع ناصر وأعدل من وضع الساق مرة أخرى. زمجر الرجل فى وجه "دانة" حينما أخذت السكين.. صاحت به "دانة":

- "إهدأ أيها الغبى.. لابد من إصلاح وضع ساقك.."

ثم اتجهت إلى أخيها.. وحاولا رفع الساق من تحت الجندى.. تحسس الجندى الأرض* حوله.. وجد حجراً كبيراً رفعه بجهد شديد.. وتحامل بكل قوته وجلس ورفع الحجر ليضرب به رأس "ناصر" الصغير.. شعر

- يحتضن أخته: يجعلها فى حِضنه والحِضْنُ ما دون الإبط إلى الكشح أى من أسفل الإبط إلى الوسط.

- تَحسَّس: حاول معرفة ما خفى من الأرض عليه بإحدى حواسه الخمسة غالباً باليد كما هنا.

الجندى بأربعة أيد صغيرة رقيقة تصلح من وضع الجبيرة على ساقه.. شعر براحة بسيطة "من هذين الصغيرين؟ ماذا يفعلان بساقى؟" ألقى الحجر من يده.. مازالت الأيدى الصغيرة الناعمة تعمل بجد لإعادة وضع الجبيرة فى مكانها الصحيح.. القى الرجل بجسده مرة أخرى إلى الأرض وقال فى وهن "لماذا؟.. لماذا؟.. أكاد أجن". قالت له "دانة" متسائلة:

- "ماذا تقول؟"

قال:

- "ماء..أريد ماء.. أكاد أختنق"

أسرعت "دانة" إلى إناء الماء.. ورفعته بجهد*.. رفع الجندى رأسه وبدأ يشرب.. نظر إلى "دانة" الصغيرة سقطت دمعة من عينه.. إمتدت أنامل "دانة" الرقيقة لتمسحها.. تمتم الرجل "لماذا؟"

أجابت "دانة" دون أن تفهم: "لست أدرى.. لقد أحضرنا لك بعض الطعام.. أمسك"..

سقط الرجل إلى الأرض.. وبدأ يتمتم بأشياء غريبة. "وضعت "دانة" يدها على جبينه، كان ملتهباً.. "الرجل مريض، درجة حرارته مرتفعة جداً"..

- بجُهد: بمشقة، وفى غير هذا الموضع يمكن أن تحتمل معنى النهاية، الغاية.

كان "ناصر" قد أنهى إعادة وضع الجبيرة.. إتجه إلى "دانة" "ماذا تقولين؟"

- "إن الرجل مريض"

بدأ الجندى العراقى يهزى* بأشياء غريبة "الوطن.. أخى.. أختى.. الشرف.. المال.. مازالوا صغاراً.. لا أفهم شيئاً.. لماذا؟.. لماذا؟"

استطاع "ناصر وأخته التصرف فى عمل كمادات* من الماء على رأس الجندى الملتهب.. مرت الساعات.. مازال الرجل يهزى بأشياءَ لم يفهمها الصغيران "عدالة التوزيع.. الفقر.. الغنى الفاحش.. الأمل.. المستقبل.. أنا فنان كبير.. لوحاتى مازالت فى المعرض.. ماذا جاء بى إلى هنا.. لا أفهم فن الحرب.. السياسة.. الدم.. القتل.. أرجوكم أريد العودة.. مازالت عندى لوحة لم تتم بعد."

كاد الظلام ينتشر.. يجب العودة.. ما العمل؟.. كيف يتصرف الصغيران؟ يجب العودة.. قررا أن يتركا الجندى بعض الوقت والعودة إلى البيت لقضاء الليل سيعودان فى الصباح.. أغلقا المكان بالباب المكسور ووضعا الأحجار والأتربة مكانها.. أسرعا إلى البيت..

- يهزى: يتكلم بكلام لا يعى معناه.
- كمَّادات: تكميد العضو بخرق ونحوها وفى الحديث "الكِمَادُ أحبُّ إلى من الكى".

الوقت تأخر.. الرعب يملأهما ماذا سيفعل والداهما؟..

على الباب وجدا الجميع في انتظارهما.. أمسك الوالد بأذن "ناصر" وسحبه بشدة إلى الداخل احتضنت الأم ابنتها وهي تبكي وتؤنبها* بشدة.. أصر الجميع على معرفة أين كانا.. صرخ الأب بشدة "إن لم تخبرني سأقوم بجلدك.. لن أتركك.. قل لي بسرعة أين كنتما؟ لم يجبه "ناصر".. اتجه الأب إلى "دانه" وشدها بقوة من أمها صارخاً قولي لي" أين كنتما؟.. أحضر يا "فهد" العصا.. سأحطم عظامهما".

لم ينطق الطفلان بشيء.. أحضر "فهد" عصا كبيرة وأمسك "ناصر" لأبيه لكي يضربه رفع الأب العصا ليهوى بها على جسد "ناصر" صاحت "دانة" "كنا خلف البيت نلعب" ثم بكت بشدة وهربت إلى أمها "لا تضرب أخي.. أخي لم يفعل شيء.." تقدم العم من والدها وأخذ منه العصا مهدئاً له قائلاً:

- "صبراً يا أخي.. إنهما طفلان... لا يفهمان شيئا.. لقد كانا يلعبان.. إسمعا.. لا تتركا البيت مرة أخرى.. لقد كنا في شدة الخوف من أجلكما."

إنتهت المشكلة عند هذا الحد.. صعد "ناصر" و"دانة" إلى غرفتيهما.. أحضرت الأم لهما طعام العشاء.. جلسا ليأكلا.. نظر "ناصر" إلى "دانة"، نظرت "دانة"

- تؤنبها: وبخه وعنفه ولامه.

إلى "ناصر" وهى تقضم قطعة خبز كبير وهى تبتسم له لقد إنتصرا.. لم ينكشف سرهما.. تذكر "ناصر" الجندى.. ترى هل سيموت.. لا يمكن أن يموت.. إنه رجل طيب.. تقول عيناه ذلك.. لقد أراد قتلى.. ذبحى.. كلا.. لقد كان خائفاً نعم الخوف فقط هو السبب.

ترى.. هل نام "ناصر" و "دانة"؟.. كلا.. كان نومهما متقطعاً تملؤه مناظر شتى للدم والجروح والأسلحة والسكاكين... كل ذلك أمام خلفية غريبة لأصوات متفرقة لرصاصات وانفجارات هنا وهناك.

لم يكد الصغيران ينتهيان من طعام الإفطار حتى صعدا إلى غرفتيهما.. هناك قررا النزول من النافذة.. لا يمكن الخروج من الباب بعد هذه الرقابة الشديدة.. نزل "ناصر" أولاً متسلقاً أخشاب (البرجولا).. ثم تبعته "دانة"..

سمعا صوت نباح كلب وحشرجة شديدة.. خفق× قلباهما.. أسرعا.. كان هناك كلب ضخم يقف أمام الباب المكسور يحفر حوله يحاول الدخول.. أسرع.. "ناصر" و"دانة".. بكل ما فيهما من قوة ألقيا بالأحجار على الكلب الضخم زمجر الكلب متحدياً.. أعلن الحرب.. مكشراً* عن أنيابه.. لم يخف أى منهما.. ظلا يقذفان بالطوب ويصرخان بالكلب بشدة.. شعر

- مكشراً: كشف عن أنيابه وأبداها.



الكلب بإصرارهما.. تعجب الكلب.. أصابه حجر في رأسه.. تألم وعوى* وهرب وهو مازال لا يفهم شيئا لماذا هذا الدفاع المستميت عن هذا المكان.

أسرع الطفلان رفعا الباب. كان الجندي جالساً ممسكاً بالحجر مكشرا عن أنيابه فاتحاً عينيه عن آخرهما "من؟.. من؟" قالت له "دانة" بصوتها المخملي* الرقيق* "لا تخف.. ماذا بك؟.. لا تخف"ألقى الجندي الحجر جانباً قائلاً: "أنتما؟ الحمد لله" لاحظ الطفلان أن الجندي قد وجد الطعام الذي في حقيبة وأنه قد أكل منه بعض الشيء.. "يجب الإسراع بإخراجك من البلدة" إن رآك رجال المقاومة سيقتلونك.. هل تستطيع السير على ساقك؟" تلك كانت كلمات "ناصر" وهو يتفحص الجبيرة على ساق الرجل.. كان الرجل منشغلاً بمداعبه* شعر "دانة" الناعم تمنى لو استطاع رسمها الآن. إنها حقاً رمز البراءة والنقاء وهي تبسم له قائلة:

- لقد قلت لأخي إنك رجل طيب.. هل أنت كذلك؟"

- عوى: مصدره عُواء وهو صوت الذئب والكلب وابن آوى.
- المُخْمَليّ: الذي يشبه الخَمْل وهو ريش النعام. وهو أيضاً القطيفة ومثلها ما يشابهها بفضل على غيره.
- الرَّقيق: الرقيق النحيف. اللطيف وهو اللين السهل.
- مداعبة: الدُّعابة الممازحة والكلام بما يستملح أي يستعذب ويرتضى

نظر الجندى إلى ملابسه العسكرية وقال:

- "كنت.. كنت رجلاً طيباً"

فقالت "دانة" وهى تتحسس وجهه:

- "والآن؟ هل أنت شرير؟"

فأجابها: "كنت.. كنت ولكننى سأعود رجلاً طيباً"

قالت "دانة": "هل تعدنى بذلك؟"

فأمسك يدها بشدة قائلاً: "نعم.. أعدك*. وأعاهدك*.. لقد استوعبت الدرس منكما"

خرج "ناصر" وأحضر عصا ليتكىء عليها* الرجل.. وهكذا بعد قليل خرج الجميع والجندى يتكىء على العصا ويستند بيده الأخرى على كتف "ناصر".. وفى نفس الوقت كانت "دانة" تمسك بيدها الصغيرة الناعمة أصابع الجندى الضخمة تعاوناً منها على مساعدته عند خروجهما.. ولوهلة* ما شعر الثلاثة وكأن أشعة الشمس قد تسللت من خلال السحب

- أعِدُك: وعد وعداً. منّاه به. وعد وعيداً أى هدده به المقصود فى القصة الوعد والمُنى.
- أعاهدك: العهد الأمان واليمين والموثق والذّمة والحفاظ والوصية.
- ليتكىء: ليجلس متمكناً أو مسنداً ظهره أو جنبه إلى شىء.
- لوهلة: أَوَّلَ شىء أو أول ما يُرى.



لتداعب وجوههم.. فقط لوهلة.. وفجأة إذا بصوت صارخ:

- "قف مكانك"

انتبه الصغيران فإذا برجال العائلة جميعاً أمامهم.. الوالد والعم وابني العم.. وقد صوب ابن العم سلاحه إلى الجندي العراقي صارخاً" هذا واحد منهم.. هذا عراقي لص.. لابد من قتله". هم* بإطلاق الرصاص ..

لم يعرف "ناصر" وقتها وحتى اليوم لماذا فعل هو وأخته ذلك. لقد قفز كل منهما أمام الجندي العراقي لحمايته بجسديهما الصغيرين. صاحت "دانة":

- "إنه رجل طيب.. أقسم لك إنه رجل طيب.. لقد وعدني. أرجوك لا تقتله"

وبكت "دانة".. صاح "ناصر":

- "كلا.. كلا يا ابن عمي.. إنه جريح.. إنه أسير.. لن أتركك تقتله"

تقدم والد "ناصر" إليهما.. ونظر إلى الجبيرة على ساق الجندي العراقي قائلاً :

- من صنع لك هذه الجبيرة"

فقال "ناصر" مجيباً:

- همَّ: عزم على القيام بالأمر لم يفعله. والعزم هو إرادة فعل الشيء القطع عليه.

- "أنا.. أنا صنعتها"

وقالت "دانة": "لقد أنقذنا حياته يا أبى.. أقسم لك إنه رجل طيب"

صاح ابن العم: "كلا يجب قتله إنه عدو"

انتزع عم "ناصر" السلاح من يد ابنه قائلاً:

- "كلا يا ولدى.. نحن لا نقتل أسرانا.. نحن لا نقتل الجرحى هيا.. هيا لنأخذك إلى المستشفى.. أما أنتما يا صغيراى ابقيا هنا بالبيت"

ذهب الجميع.. نظر الجندى خلفه إلى الصغيرين. فجأة أسرع "ناصر" عدة خطوات وصاح :

- "أنت أيها الجندى.. ما اسمك؟"

ابتسم الجندى العراقى وأجاب:

- "إسمى "ناصر".

الدير

كانت الصحراء فى سيناء.. صامته.. واجمة.. وكانت السيارة العسكرية تنهب بنا الطريق بعد أن صدرت لنا الأوامر بالانسحاب.. أحسسنا نحن الخمسة مع قائدنا الرائد "فهمى" أن أرواحنا تنسحب.. كما ننسحب من سيناء.. كان كل شىء صامتا.. صامتا.. حزينا.. حتى لون الصحراء.. والطريق.. حتى مقدمة السيارة.. اصطبغ بلون مكفهر.. غاضب.. نحن لم نكد نحارب. نحن لم نكد نظهر للعالم بطولات الجندى المصرى التى سمع العالم عنها على مر العصور.. نحن لم نكد نحقق قول رسول الله "خير أجناد الأرض" صدرت لنا الأوامر بالانسحاب.. وكل منا لا

يصدق.. لم يصدق.. لن يصدق.. أنه لم يأخذ فرصته ليقول كلمته.. هكذا.. كنا ننهب الطريق فى هذا الانسحاب الحزين.. لم يستطع أى منا أن يقول شيئا.. لا شىء يقال.. كل منا يعرف تماماً ما يختلج فى صدر الآخرين.. كان حديث الصمت صارخاً. مدوياً. لم يقطع هذا الصمت إلا سماعنا صوت سيارة نقل جنود إسرائيلية قادمة نحونا.. بسرعة طلب القائد من السائق أن يختفى خلف أحد الكثبان.. كانت الأوامر عدم الاشتباك.. بل الانسحاب.. مرت السيارة الضخمة أمامنا.. لم يلحظنا قائدها.. ولكننا سمعنا صوت صراخ صادر من داخل السيارة التفتنا خلف السيارة جميعاً.. كان صوت أطفال.. ونساء.. يصرخون وجنود يضحكون.. للحظات انكشف الغطاء الخلفى للسيارة.. شاهدنا فتاة تطل من السيارة فى محاولة للقفز منها.. كانت ترتدى زى الراهبات المسيحيات.. امتدت إليها أيادى ضخمة جذبتها إلى الداخل..

قفز زميلى "ملاك" من السيارة وجرى خطوات خلفهم ثم عاد ونظر إلى قائده "فهمى" نظرات تملؤها صرخة صامتة مدوية... أجابه القائد بسرعة:

- "نعم يا "ملاك".. أعرف ما تريد أن تقول.. هيا يا "محمد".. أدر الموتور.. هيا خلفهم.."

سعدت جداً لهذا الأمر الذى اثلج قلوبنا جميعاً..

يجب إنقـاذهـم.. أسـرع "مـحـمـد" بسيـارتنا خلف السيارة الإسـرائيلية.. واقترب منها.. أكثر فـأكثر.. لم يشـاهدنا قـائد السـيارة الأمـامية.. كـانت سيـارتنا صغيرة.. بحيث اختفت تماماً خـلف السيارة الكبيرة اقترب بنا "محمد" حتى كادت مقدمة سيارتنا تلامس مؤخـرتهم.. وهنا استـعد "ملاك" وأنا مـعه.. وصـعدنا إلى مقدمـة سيارتنا.. كان صـوت الصراخ والضحكات عـالياً.. قـفـزنا أنا و"ملاك" بسـرعـة وتشـبثنا بمؤخـرة السيـارة الكبيرة.. كل منا من ناحـية وبنظرة متبادلة سريعـة.. قفزنا فى نفس اللحظة داخل السـيارة.. كل منا قابله جنـدى إسرائيلى مندفعا، وبحركة سـريعة ألقينا بهـما خارج السـيارة إلى الصحـراء.. كان هناك جنديان آخـران.. مشـغـولان بشل حركـة فتـاتين بملابس الراهبات.. فـى مـحاولة خـسيسـة لتقبيلهمـا.. وكان هناك أيضاً حـوالى خمـسـة أو سـتـة فتيات صغـيرات يصـرخن فى هلع.. إنتبـه الجنديان لوجـودنا.. سـمـعنا صوت طـلقـات رصـاص خـارج السـيـارة.. هاجـمنا الجنديـان.. غـرس كل مـنا سكينـه فى صـدر الجـنديين الإسرائيليين صـرخت كبرى الراهبتين بقـوة: "كلا.. هذا حـرام.. الرب لن يرضى". صرخت الفـتيات الصـغيـرات بشـدة لرؤية الدم والموت. نظر "مـلاك" إلىَّ.. فـهـمت قصـده.. رفعنا الجثـتين.. وألقينا بهـما خارج السـيارة.. التى ما لبثت أن توقفـت تماماً.. ظل "ملاك" يهدىء من



روع الفتيات.. نزلت من السيارة.. كانت مجموعتنا قد قضت على ثلاثة جنود إسرائيليون فى مقدمة السيارة الكبيرة..

نزل "ملاك" بعدى بدقائق:

- "تمام يا سيدى.. كل شىء تمام.. تم الاستيلاء على السيارة والسيطرة على الموقف"..

تقدمت الراهبة الكبيرة من قائد المجموعة:

- "الرب لا يرضى عن القتل.. لا يرضى عن العنف أنتم تخربون أخلاق بناتى".

قال قائدنا "فهمى" وهو مبتسمٌ:

- "حمدا لله على سلامتكم أولاً.. أرجوكِ لا تغضبى هكذا.. إنها الحرب."

فأجابت باقتضاب: "الحرب ليست من تعاليم الرب.. القتل لا يرضى عنه الرب."

فسألها بهدوء شديد: "من أنتِ يا سيدتى.. وكيف جئتِ إلى الصحراء"

فأجابت بشكل أكثر هدوء: " أنا الاخت "تريزا".. وهذه الأخت "مارى" وتلك بناتنا.. كنا فى طريقنا من القاهرة إلى دير سانت كاترين حين فاجأتنا حربكم هذه.. أصيبت سيارتنا ومات الأب "حنا".. وسرنا فى الصحراء لا نعرف ماذا نفعل حتى جاء هؤلاء الجنود

الإسرائيليون فأسرونا."

فأضافت الأخت "مارى":

- "حتى أتيتم أنتم وفككتم أسرنا والآن دعونا نكمل رحلتنا حتى نصل إلى الدير.. إلى سانت كاترين."

فأجابها القائد "فهمى":

- "ولكن يا سيدتى.. المسافة بعيدة جداً.. من الأفضل أن تعودى معنا أنت وبناتك إلى القاهرة."

فأجابته بإصرار: "إن قدرنا أن نصل إلى الدير.. تلك مشيئة الرب.. ولن نتخلى عن رحلتنا هذه"

تقدم ملاك من القائد وقال: "يسمح لى سيدى.. أن أرافقهن إلى الدير"

فأسرعت وأضفت فى لهفة: "وأنا.. وأنا يا سيدى اسمح لى بمرافقتهن معه.. لابد من حمايتهن يا سيدى.. الصحراء كبيرة.. وخطيرة".

فابتسم "فهمى" وأردف:

- "صدقانى.. لولا الأوامر لرافقناهن جميعاً.. لكن اسمعا.. عندى فكرة!!" وأخرج من جيبه دفترا وكتب فيه وهو يكمل كلامه "إليكما تصريحان بأجازة سأصرح لكما بأجازة ٤٨ ساعة على أن تكونا موجودان بالوحدة فى السويس خلال ٤٨ ساعة.. خذا

الآن أنتما حران فيما تفعلان بوقت أجازتكما."

تهلل وجهنا وصرخ "ملاك":

- شكراً للرب وقام بأداء علامة الصليب. نظرت إليه الأخت "تريزا" باستغراب: "أنت مسيحي.. حمدا للرب" فأجابها:

- "نعم.. ولن نتركك إلا في الدير.. أنا وزميلي"أحمد" نحن سنكون جنود الرب لحراستكما."

فأشاحت بوجهها وهي تتمم:

- "أنتم لا تعرفون الرب.. الرب لن يرضى عنكم.. أنتم خاطئون.. أنتم قتله."

أردت أن أتكلم فأشار لي "ملاك" بالصمت.. فسكت.

ودعنا القائد "فهمي" وبقيه المجموعة وركبنا أنا وملاك في مقدمة السيارة الكبيرة.. وركبت الفتيات في الصندوق الخلفي في فرحة عارمة بنجاتهن.. وانطلقنا بهن صوب دير سانت كاترين.. كنا نتبادل أنا و"ملاك" القيادة.. في صمت وتوتر خوفاً من أن تقابلنا إحدى دوريات العدو ويبدو أن خوفنا كان في محله ففي إحدى المنحنيات فوجئنا بسيارة جيب للعدو تقابلنا .. استمر سيرنا وكأننا لم نرَهم.. بعد دقائق.. شاهدت السيارة تستدير وتلاحقنا.. لقد كانت أكثر سرعة من سيارتنا الكبيرة. أخذ "ملاك" سلاحه..

وفتح باب السيارة وتسلق جانبها أثناء سيرها ووصل إلى الصندوق الخلفي.. أمر الفتيات بالرقود على الأرض واستعد بسلاحه.. أطلق الرصاص على السيارة المطاردة.. لم يصيبها بسبب وعورة الطريق وشدة اهتزاز السيارة.. أطلقوا علينا وابلاً من الرصاص.. حاول "ملاك".. مرة وأخرى.. لم يستطع إجادة التصويب.. لم يجد بدا إلا أن يقفز من السيارة المتحركة إلى الأرض الثابتة.. شاهدته في المرآة يقفز كالفهد.. كيف هذا؟ لماذا؟

الآن سيواجه جنود العدو وحده.. أوقفت السيارة.. وأخذت سلاحي وركضت في اتجاهه.. كان راكعاً عى إحدى ركبتيه ويطلق الرصاص على السيارة التي كانت تقترب منه بشدة ورصاص العدو يسبقها إليه.. يجب اللحاق به.. فجأة شاهدت السيارة على مقربة منه.. تكاد تدهمه.. وقف مواجها لها.. وأخرج قنبلة يدوية.. اقتربت السيارة كالحيوان المفترس والرصاص يصرخ به.. ألقى "ملاك" القنبلة في اللحظة المناسبة ثم قفز إلى جانب الطريق. وهكذا انفجرت السيارة بمن فيها.. في اللحظة التي لحقت فيها "ملاك" كان راقداً على الأرض.. مبتسماً.. أشار إلى بعلامة النصر بإبهامه أسرعت إليه قائلاً:

- "سلمت يدك يا بطل.. ليذوقوا طعم شجاعتنا"

حاول النهوض لم يستطع.. كان كتفه ملوء بالدماء.. إذن فقد أصبت يا بطل.. يا زميلي.. وصديقي.. فتحت أزرار القميص بسرعة.. الرصاصة اخترقت كتفه قلت ساخراً :

- "إنها إصابه بسيطة.. رصاصة واحدة يا رجل؟ كم أنت بخيل.. لا تخف إنها ليست قاتلة.. هيا استند على ذراعي.. هيا إلى السيارة.."

ساعدته على النهوض واتجهنا إلى السيارة أصعدته إلى مكانه.. وأنا يملؤني الفخر ببطولته. كانت سعادتي لا توصف.. أخيراً.. قلنا كلمتنا.. رغما عنهم..

بدأت في القيادة.. نظرت إلينا الأخت "تريزا" من النافذة الفاصلة وقالت:

"هذا عنف.. هذا لا يصح.. الرب لا يرضى"

ابتسم "ملاك" قليلاً.. ورسم علامة الصليب.. قلت "الحمد لله" صاحت الأخت "تريزا" " توقفا أيها الشابان.. يجب أن نرى مدى جرحه هيا توقف"

لم أستطع ألا أطيع أوامرها الصارمة.. نزلت وركبت بجوار "ملاك".. ومعها بعض الأقمشة وقنينه مياه.. وظلت تمسح الدماء عن كتفه وهي تتمتم بكلمات عن السلام.. السكينة الغفران..

لم تمض ساعة إلا وتوقفت السيارة.. يبدو أن شيئاً

ما أصاب الأجهزة المحركة.. حاولت إدارتها مرة أخرى.. لم أستطع.. نزلت و كشفت غطاء السيارة الأمامى.. يبدو انها أصيبت.. لأن الزيت كان ينزف منها بشدة.. لم يعد للسيارة أيه فائدة.. نزل الجميع .ليس أمامنا إلا أن نكمل الطريق سيراً على الأقدام. قال "ملاك":

- "ولكن المسافة مازالت بعيدة جداً"

قالت الاخت "مارى":

- "إنها إرادة الرب.. "لا تخف يا أخى.. نحن معنا الرب."

كان صوتها غريباً حقاً.. هادئاً جداً.. واثقاً جداً.. حازماً جداً.. أشاع فى قلبى الكثير من الاطمئنان. "صاحت "مريم" كبرى الفتيات التى تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً" :

- "كيف سنسير.. نحن معنا أطفال إن "نانسى" الصغرى ثمانى سنوات.. كيف تسير كل تلك المسافة.. ثم ان "ملاك" جريح من سيقدر على حمله"

قلت لها مطمئنا: "لا تخافى سنتدبر الأمر"

صعدت إلى صندوق السيارة.. مزقت غطاءه القماشى.. وأخذت عمودين من هيكله المعدنى.. طول كل منهما أكثر من مترين.. مزقت شرائط من القماش المقوى وبدأت فى عمل نقاله نحمل عليها



"ملاك" الجريح ساعدتني الفتيات الصغيرات في سعادة ونشوة.. كانت "نانسي" الصغرى.. أكثرهن حماساً.. ولعباً.. وحركة.. واطمئناناً.. لم تترك الأخت "تريزا" الكتاب المقدس من يدها لحظة.. دائماً تقرأ منه.. وبلا توقف.. لم يمض وقت حتى جمعت كل منهن أشياءها ووضعنا "ملاك" على النقالة التي صنعت لها حمالة من اليدين.. وكدنا ننصرف.. تذكرت فجأة شيئا مهما.. الماء.. "هل معكن ماء؟" كان مع كل منهن زجاجة بلاستيكية من الماء الصحي.. هذا لا يكفي.. لابد من وجود ماء احتياطي.. بحثت.. لم أجد بالسيارة أي ماء صالح للشرب.. على العموم عليهن الاقتصاد بقدر الإمكان في شرب الماء.. رفعت الحمالة فوق كتفي وأمسكت بيديها المعدنيتين وسحبتها خلفي وعليها "ملاك".. بهذه الطريقة لن تكون ثقيلة..

كانت الشمس حارقة.. ارتفعت درجة حرارة "ملاك".. الفتيات رغم تشديد أوامري.. إستهلكن المياه بسرعة.. ثم بدأ العطش بكت الفتيات.. تزمرت الأخت "تريزا".. فجأة صاحت "مريم" كبراهن:

- "انتظروا.. "نانسي" سقطت."

توقفت ونظرت خلفي فإذا بنانسي راقدة على الأرض أسرعت إليها.. كانت قد فقدت الوعي من شدة حرارة

الشمس.. ما العمل الآن؟ يجب البحث عن ملجأ.. تسلقنا إحدى التلال ذات الصخور الضخمة.. كنت أعرف أن بين تلك الصخور الضخمة توجد شقوق كبيرة يمكن الاختباء بها.. وهكذا أصعدت الفتيات وأدخلتهن فى هذه الشقوق كل واحدة أو اثنتان حسب حجم الشق.. ثم نزلت وحملت "ملاكا" على ظهرى.. وصعدت به وأرقدته فى أحد الشقوق بجوارى.. كان هذا التصرف بمثابة النجدة للفتيات من قيظ الشمس.. صاحت الأخت "تريزا":

- "هيا يا فتيات.. هيا إلى الصلاة"

خرج الجميع وجلسن على ركبهن وضممن اكفهن وبدأت الصلاة.. أما أنا فقد وقفت خلفهن وبحثت المكان جيداً حتى اطمأننت.. ثم بدأت صلاة الظهر والعصر قصراً وجمعاً. هدأ الجميع.. وأحسست أن أكثرهن قد غلبهن النعاس.. كنت أحادث "ملاكا" بصوت خفيض حتى لا أوقظهن.. لابد من التحرك بعد ميل الشمس وانكسار لهيبها.. فجأة سمعت صراخا.. صراخا.. إنها "نانسى".. "نانسى" مرة أخرى أسرعنا إليها.. كان على كتفها الأيسر قرب وجهها عقرب ضخم.. قلت لها: "اهدئى لا تتحركى".. لم تهدأ ظلت تصرخ.. حينما اقترب العقرب من وجهها يبدو أنه شعر بتشنجات وحركات الوجة الشديدة رفع زُبانه*

- زُبانه: قرنه وهو الجزء الذى يغرسه العقرب فى جسم الإنسان.

وهم بالانقضاض.. لم يكن أمامى إلا أن أقفز بأسرع ما يمكننى.. وبكل قوتى أزحت العقرب من كتف الطفلة ولكنه تشبث بيدى. لست أدرى كيف غرس زُبانه فى كفى ودفع بسمه إلى دمى حدث كل هذا فى لحظة.. أزحته بعنف بيدى الأخرى ووطأته بقدمى.. ولكنى.. سمعت فى أذنى طنينا غريبا.. وشعرت ببرودة شديدة.. وكأن آلاف من حشرات النمل تسير فى جسدى سقطت على ركبتى ثم على جانبى.. ثم رقدت ناظراً إلى السماء يبدو أنها النهاية..

فجأة أحسست بوخز آخر فى كفى.. كانت الأخت "مارى" جالسة بجوارى ممسكة بيدى وبطرف سلاحى (السكين) أحدثت جرحاً فى كفى ثم بدأت تمتص الدم والسم وتبصقه بعيداً. كل ذلك بعد أن أحكمت رباط وشاحها حول معصم يدى بقوة. آخر ما سمعته صوتها الملائكى:

- "نشكر الرب.. الآن سينجو لا خوف عليه.. دعوه يستريح" ثم بعدها أحسست بشفتين رقيقتين تطبعان قبلة على جبينى.. حاولت فتح عيناى لم أستطع يبدو أنها الصغيرة "نانسى" لابد أن تكون هى.

رغم قوة بنيانى الجسدية إلا أن الأصوات قد اختلطت فى ذهنى.. مع الصور السريعة الباهته. صوت أمى.. وجهها الهادىء.. صوت أبى.. أجراس الكنيسة فى قريتنا المؤذن.. صلاة الفجر وما فيها من خشوع.. أنا

دائمـاً.. أحب صلاة الفـجر.. بل وقـرآن الفجـر.. حفـلات عـرس.. أسمـاء وأصوات، اشـتـقت بشكل شديد جـداً لقطعـة من الجبن القـريش ورغـيف (بتـاو) سـاخن من الفـرن.. كـانت أمي تنادى "أحـمـد".. "أحـمـد." هيـا يا "أحـمـد" "اسـتـيـقظ سـتـغـيـب الشـمس".. كـيف استيـقظ والشمس تغيب هذا لم يحـدث أبدا فتحت عـينى لأخبـر أمـى أنها مـخطئـة... أنا أستـيقظ قـبل شروق الشـمس دائما يا أمـى.. الصـوت تغير ليس صوت أمى.. ..إنها الأخـت "تريزا".. أين أنا ؟ ماذا يحـدث؟ كيف انتـقلت من القـرية إلى هـنا؟.. أخـيـرا وضـحت الصورة...وأين أنا "أنا هـنا.. تلاشت صورة أمـى"...

نهضت.. كـانت قواى مازالت خائرة قليلا .. وألم رهيب فى كف يدى ..

- "أحـمـد" لابد من مـغـادرة هذا المكـان.. البنات فى رعب شـديد" كان هذا صوت ملاك.

فاجبته وأنا أنهض وكأنى فى قمة نشاطى:

- "حسنا.. حسنا.. لتجمـع كل منكن أغراضها لقد قلت حدة الشمس.."

لاحظت الجـروح الـكثـيـرة فى أذرع وأوجـه وركب الفتيات الصغـيرات وتمزق بعض ملابسهن، هبطنا إلى الطريق.. وبدأنا فى السـيـر الهـوينى* وأنا أحـمل على

- الهوينى: بإتئاد فى المشى أى ببطء.

كتفى الحمالة القماشية وأمسك بذراعى النقالة. كانت حالة "ملاك" مستقره ولكنه لا يقوى على السير بالمرة.. لقد حاول كثيرا.. لدرجة أنه ألقى بنفسه من فوق النقالة عدة مرات رافضا حمله... فى إحدى المرات رفض أن يصاحبنا .قائلا:

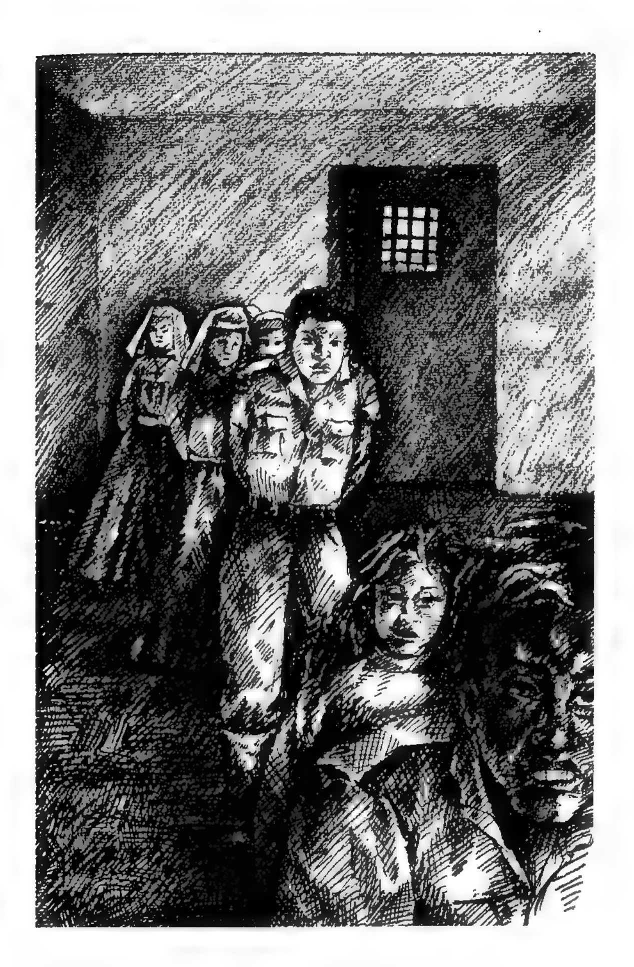
- "اتركونى هنا... أرجوكم اتركونى.. أنا عبء عليكم.. إننى أعيق حركتكم.. أرجوكم."

صاحت به الأخت "تريزا": "إن لم تكف عن هذا الهراء صدقنى سنقيدك بالحبال إلى النقاله لتصمت وتتركنا نتقدم."

لم يسعه إلا أن يصمت... ويتمتم ببعض الصلوات.. أما أنا فقد كان كل همى مشكلة المياة.

- "قفوا أماكنكم.. لا تتحركوا... سأطلق النار.. لا أحد يتحرك" فجأة ظهرت حولنا مجموعة كبيرة من الجنود الإسرائيليين.. مصوبين أسلحتهم جميعا إلينا.. لأول مرة أسمع صوت الغيظ ينبع من أعماقى.. لا يمكن عمل شىء حفاظاً على أرواح الفتيات الصغيرات إذن سيتم أسرنا. كان هذا الصوت الذى يشبه صرير الثعبان صوت قائد المجموعة الإسرائيلى.

لم تمض دقائق حتى تم تقيدنا جميعا بشكل تملؤه القسوة ..حتى الصغيرات لم تسلم من القيد العنيف علاوة عن القرص واللمسات الكريهة لهن من جنود



العــدو... الســعــداء تماما بهــذه الوليــمة. تم وضــعنا فــى غــرفة فـى مــعسـكر صــغـير.. كــانت هـذه الغـرفــة ذات نافذة صـغيرة مـؤمنة بالحديد القوى.. وباب لـه شَــرَّاعة صغــيرة جدا تغلق وتفــتح من الخارج.. كـان الجـميع فـى حــالة صــلاة... فتح البــاب فــجــأة بعنف ودخل رائد من قوات العــدو يتبــعه بعض الجنود.. تفــرس فـى وجوهنـا.. وهو مبتسم بتشـفى غريب.. واضعا يداه فـى وسـطه. مر خلالنا.. حملق فينا الواحد تلو الأخر.. ثم توقف عند الأخت "مــارى" وابتــسم... ثم فجــأة مــد يده وخلع عن رأســهــا الغــطاء.. كــانت غــاية فـى الجــمــال الملائكـى.. الحــزين.. مد يده مـرة أخــرى ولمس وجهــهــا... لم أتمالك نفــســى كـــانت يداى مــقــيــدتين خلف ظــهــرى. بقــوة اندفعت ناحيته ودفعتــه بأقصى ما لدى من قوة بعيدا عنها ووقفت بينه وبيــنها.. لست أدرى كيف ولكن فى ثوان كــان "مــلاك" يقف بجــوارى حامــيـا بظهــره باقى الفتيــات... فـى عيوننا نظرات تحد غــريبه وعلـى وجوهنا مــشاعــر الأســود وفـى أصواتنا زمــجــراتها. لاحظ أحــد الجنود الجرح فى كــتف "ملاك".. لكمه بقوة فـى كــتفه فقــد "ملاك" توازنه و سقط أرضــا. لم يصرخ نمت منه آه مكتومــه إنهال عليه الجنود ركلا.. ألقيت بجــسدى عليه حماية له.. إنه لن يتحمل تلك الأحذية الغليظة. كـان الركل قوياً بشكل مـخيف فـى وجهى بالذات وفى جــانبىّ لم أترك لهم فـــرصــة أن تصل ركـــلاتهم إلـى

"مـلاك".. أحسسـت أن إحـدى عـيناى قد فُـقـأتْ.. من ركله عنيفه بها. أخـرى حطمت أنفى.. صاح قـائدهم "هيا ..كفى ذلك الليلة... دعوهم".

كـانت يد "مـارى" الملائكيـة تمسح الدم عـن عـينىّ المتورمتين وأنفى وفمى الذى تورمت شـفتاه وصار ينزف بشـدة.. أكاد أجـزم أن الألم زال حينمـا شعـرت بشىء ساخن يـسقط على وجـهى فتحـت عينى بصـعوبه.. كانـت دمعه من عـين "نانسى" الصغـيرة. كـان صوت الأخت" تريزا" وهى تصلى:

- "أبانا الذى فى السـموات ليتـقدس اسـمك وليأتى ملكوتك لتكن مشيـئتك".. نحن فى حـاجة لعـونك.. لقد أخطأنا فسامحنا.. هـؤلاء خطاة* جميعا بالعنف والحـرب والموت والقـسـوة... اسـمـع صـلاتى يارب.. وسامحنا وابعث رحمتك إلينا.. نحن الخطاة"

أجابت جميع الفتيات: "آمين"

أحسسـت بهدوء غريب سـرى فى جسدى فأغمضت عينىّ.. وفقدت الوعى مرة أخرى.

أحـضـرت لى أمى الجبن القـريـش والخـبـز (البـتـاو) السـاخن إنها تعلم كم أنا جوعان ولم آكل شيئـا... صوت الجاموسـة ظريف جدا له وقع على أذنى وخاصة فى الصـبـاح... يبـدو أن أمـى سـتـخطب لى عـروسـا جميلا.. غاية فى الرقـة والجمال .. يـا إلهى إنها الأخت

"مـارى".. رأيت السـعـادة فى عـيـونهـا وهـى تنظر إلىّ خلســة فـى جلســة الخطوبة.. أمـى تـزغـرد بطـريقــة مـضـحـكـة.. إنها لـم تتعـود الزغـردة. عـروسـى تلمس يدى.. تمسك بهـا.. مـا أروعهـا. فـتحت عـينى مـازالت الأخـت "مـارى" ممسكة بيـدى وتصلى من أجلى. أفـقت ومـازالت رائحـة الجبن القريش فـى أنفـى.. إننى لم آكل بعد.. جلست وسألت:

- "أين ملاك؟ كيف هو؟"

قالت "مريم":

- "إنه بخيـر لا تخف.. نحمد الرب.. اسـترح.. الآن.. إن جـســدك كله ممتلىء بالـكدمـات ..يالهـم من غـلاظ القلوب"

تساءلت الأخت "مارى": "يا إلهـى ..لست أدرى من أين يأتيـهم كل هذا الحـقـد؟ لقـد كـانـت كل خلجـاتهم تصـرخ حـقـدا.. وهم يكيلـون لك الضربات بـلا رحمـه هداهم الرب.. استرح الآن.. استرح"

أرادت أن تدفـعنى برفق كـى أرقـد لكنى نهـضت بدلا من رقـودى واقفـا: "كلا.. يجب أن نجـد طـريقة للهـروب قبل الصباح." صاحت الصغيرة :

- "عـنـدى فكـرة.. ســأنـادى على الحـــارس.. أريد أن أشرب... وعند دخوله... نهجم جميعا.. ثم نقتله"

صرخت بها الأخت "تريزا" : "كيف تقولين مثل هذا الكلام.. يجب أن نصلى الآن ليغفر لك الرب" ثم اتجهت إلى فى غضب:

- "أرأيت؟.. أرأيت ماذا فعلت حربكم ؟.. إنها تقتل البراءة.. تقتل الرحمة.. تقتل السلام.. الطفولة إن الرب لن يرضى عنكم.. أنتم خاطئون."

نادت نانسى: "أيها الحارس أيها الحارس"فتح الحارس الفتحة الصغيرة التى لا تدخل يد الإنسان و نظر من خلالها وقال بصوت كأنه ميت:

- "ماذا تريدين؟"

أجابت "نانسى" الصغيرة: "أنا تعبانه.. أريد أن أذهب إلى دورة المياة."

فأغلق الفتحة فى عنف قائلا: "لتذهبى إلى الجحيم".

هنا وقفت "مريم"؟ وقالت: "اسمعوا.. .تظاهروا جميعا بالنوم.. دعونى.. سأتصرف أنا.. وليغفر لى الرب"

تظاهر الجميع بالنوم.. لا صوت.. بل إن الأخت "تريزا" أصدرت شخيرا عاليا بعد قليل نادت "مريم" بصوت خافت "أيها الحارس" فتح الحارس الفتحه الصغيرة مرة أخرى وصاح:

- "وماذا الآن ؟"

فأجابت وهى تبتسم بصوت ناعم:

- "لقد ناموا جميعاً.. وأنا لا أستطيع النوّم.."

فأجابها: "ومالى أنا ونومك؟"

فقالت فى شىء من دلال:

- "هل يمكن أن أتحدث معك.. يعنى أسامرك." مدت "مريم" يدها.. وأخرجت أصابعها الرقيقة من الفتحة.. ابتسم الحارس بخبث ومد يده الغليظه وأمسك بأصابعها الرقيقة قائلاً:

- "ولم لا يا حلوه.. ما اسمك؟ يا فتاتى"

فهمست له: "أخاف أن يستيقظ أحد.. هل يمكن أن نتحدث خارج الغرفه؟"

فأجابها: "ولم لا.. الكل عندى أيضا نام.." وبأيدى مرتعشه فتح الباب وأخرج الفتاة.. وبسرعه أغلق الباب ثانية. لم يسعفنى الوقت ولا المسافه بينى وبين الباب أن أهاجمه. راحت الفرصه.. وأصبحت الفتاه الآن بين براثن هذا الوحش لا حول لها ولا قوه.. أحسست بالخجل الشديد.. شعرت أنه تصرف غير مسئول.. إذا أصابها شىء لن أسامح نفسى.. وقفت الأخت "تريزا" وسط الغرفه مفتوحة العينين.. فاغره فاها لا تعرف ماذا تفعل. نزلت الأخت "مارى" على ركبتيها وضمت

كفيها ونظرت إلى النافذه وبدأت تصلى.. جلس الجميع خلفها بنفس الوضع "أبانا الذى فى السموات.. ليتقدس اسمك.." وضع "ملاك" وجهه بين كفيه وبدأ ينتحب.. ينتحب فى ألم وغيظ فإنه عاجز القوى.. لا يستطيع عمل شىء .. دقائق وإذا بالباب يفتح.. ودخلت "مريم".. همست:

- "هيا.. لا يوجد وقت هيا بسرعة إلى الخارج جميعاً.. ساعدنى يا "أحمد" لحمل "ملاك"..

نظر الجميع إليها فى ذهول.. لم يتحرك أحد صاحت فى همس:

- "ماذا بكم؟ لماذا تسمرتم .. أنا بخير الرب رعانى.. لا تخافوا هيا تحركوا"

أسرع الجميع فجأه حملنا أنا و"مريم" "ملاكا" وأسرعنا إلى الخارج.. وإذا بالحارس ملقى على الأرض وقد انغرس فى صدره سكين سلاحه.. ودمه يتراقص حوله جزلاً*.. صرخت الأخت "تريزا":

- "يا للسماء.. حتى أنت يا "مريم".. حتى أنت يا "مريم".

سحبتها الأخت "مارى" قائلة:

- "لا وقت الآن لهذا.. هيا أسرعى.."

- جزلا: عظيماً أو كثيراً.

قالت "مريم": -

- "تعالوا من هنا.. خلف هذه الغرف تقف سيارة جيب هيا إليها .." ثم سحبت سلاح الحارس وسلمته لى قائلة: "هذا احتياطى للظروف"

كانت الأرض مليئه بالحصا فقد كانت التربة فى هذه المنطقة "زلطية"... لذلك لم يكن يهمنا آثار أقدامنا فهى لن تظهر... رفعت طرف السلك الشائك إلى أعلى. كان ضوء القمر جيداً حتى نرى كل شىء... لقد كان السكون مخيماً على المكان... زحف الجميع تحت الأسلاك ثم دفعت بالنقالة وعليها "ملاك" وسحبتها "مريم" من الجهة الأخرى وأخيراً خرجت أنا من تحت السلك الشائك ثم تركته يعود مكانه. كانت السيارة الجيب حقاً واقفة مكانها... وضعنا "ملاكا" على الكرسى الخلفى ثم طلبت من الأخت "مارى" أن تجلس على المقعد ودفعنا السيارة... لم نشأ أن ندير الماكينة... دفعنا ثم دفعنا... مسافة كبيرة تزيد ربما عن الكيلومتر حتى اختفينا خلف ربوة عالية. الآن يمكن تشغيل السيارة. عالجت الأسلاك وأدرت السيارة وأخذت مكان الأخت "مارى" على المقعد. صعد الجميع وانطلقت بنا السيارة... لم أكن لأصدق أننا نجونا.

لم أكن أستطيع الرؤية جيداً لذلك لم تمض ساعة أو أكثر حتى توقفت السيارة تماماً. ماذا حدث؟ ليس

ثانيـة. نظرت الأخت "تـريزا" إلـى عـدادات الـسـيـارة ثم تمتمت:

- "إنه الوقـــود... لـقـــد نفـــذ الوقـــود...... إذن علـينا استكمـال الطـريق سيراً على الأقدام مـرة أخرى.. لكن علينا أولاً التخلص من السيارة."

كـان علـى يمين الطـريق هوة سـحيـقـة.. هذه فرصـة جيدة قـمنا بدفع السيارة وتركناها تسـقط فـى الهوة السحيقة.. الآن عند خروجهم للبحث عنا... لابد أنهم سيبـحثون عن السيارة وهى الآن أسـفل الجبل... سوف يظنوا أننا فـيـهـا وقـد قـضى علينا أو ربمـا يظنوا أننا ضللنا الطريق ونحن جميعاً أسفل الجبل...

قالت الأخت "تريزا":

ـ "يجب أن نصعـد هذا الجبل شرقـاً.. خلفه وادى ثم بعد ذلك نصـعـد إلى جبل سـانت كاترين حـيث يوجد الدير. أنا أعـرف الطريق جيـداً.. ولكن احـذروا جـمـيعـاً فـالصعـود خطر جـداً والصـخور ملـسـاء والانحـدارات شديدة".

كـــان "مـلاك" قـــد تماثل للشـــفــاء.. فـنـهض ووقف مستنداً على عصا قائلاً: أنا الآن بخير يمكننى الصعود معكم.

فـقالت الأخت "مـارى": ولكنك مـازلت مريضـاً. لابد من حملك. قد لا تستطيع الصعود.

فأجابها: "ليكن. سأحاول على العموم وإن لم أستطع، لكم إما تركى فأنا الآن بخير ولا خوف على... أو حملى مرة أخرى إذا أردتم".

أمام إصراره ومنطقه اضطررنا أن نوافق على رأيه وبدأنا الصعود الصعب. كان رأسى يكاد ينفجر.. وقد أصبحت عيناى متورمتين وتكادان أن تكونا مغلقتين تماماً. تقدمت منى "مريم" وقالت:

- "امسك بيدى، سأساعدك".

بدأ الفجر يبزغ والنور يظهر... ولست أدرى من أين جاءت تلك الفتيات الصغيرات بهذه القوة الخارقة على الاحتمال. شيء خارق حقيقة. ربما الخوف... ربما الأمل... ربما الإرادة... ربما الإيمان بأن الله معنا.. ربما كل ذلك. لكن المهم أننا قد قطعنا حوالى منتصف المسافة إلى قمة الجبل حين طلعت الشمس. الآن فقط ظهر الإرهاق على الجميع. كان لابد من البحث عن مكان مسطح يتسع لنا جميعاً. كانت الأخت "تريزا" فى المقدمة وأنا و"مريم" خلفها ثم بقية البنات ثم الأخت "مارى" تساعد "ملاك" على الصعود.

أشارت "مريم" قائلة:

- "هنا على اليمين هذا المكان يصلح للراحة.. إنه مسطح.. يتسع لنا جميعاً... هيا لنتسلق إليه".

جلس الجميع للراحة.. ذهبت للاطمئنان على حالة

ملاك فوجئت أن حالته الصحية رائعة وحالته النفسية أروع. قالت الأخت "مارى":

- "هيا يا "أحمد" تعالْ لأفحص لك عينيك وكدماتك... سيعاقبهم الرب يوماً ما... صدقنى.. يوما ما ستسمع أنهم قد أزلهم الرب جزاء لما فعلوه بنا... صدقنى"...

فجأة تدحرج حجر صغير من أعلى الصخرة تحت أقدامنا... صحت "ليختبئ الجميع" واستعددت بالسلاح... لابد من وجود أحد هنا. صاح "ملاك":

- "هناك ناحية الجنوب... فوق الصخرة الكبيرة... يوجد اثنان".

فتحت عينىّ... رأيت كل شىء... لم يعد هناك ألم.... لم يعد فيها ورم... كنت أرى كالصقر... بسرعة صوبت. استطعت أن أسقط الاثنين... وإذا بملاك يندفع بقوة نحوى ويدفعنى بقوة عجيبة ويسقطنى أرضاً... تلقى "ملاك" بدلاً منى عدة رصاصات... كان العدو خلفى لم أكن أراه.. رآه "ملاك".. صوبت إلى العدو وأسقطته وانتظرت لحظات... لا أحد.. لابد أننى قضيت عليهم جميعاً أسرعت إلى "ملاك".. ألقيت بنفسى بجانبه: "ملاك"... أخى... ماذا بك؟..." كان ممسكاً ببطنه ويبتسم. رفعت يده ونظرت... تلقى عدة طلقات فى بطنه.. يا للمصيبة... يا للخسارة... أخى...

حبيبى... "ملاك"... أخى... كان صراخى وعويلى شديداً جداً... لم أستطع مقاومة الانفعالات. وضعت سلاحى جانباً... رفعته واحتضنته باكياً... همس فى أذنى:

- "أحمد" يا أخى يا أعز صديق فى حياتى.. البنات يا "أحمد".. البنات... أمانة أتركها فى رقبتك.. يجب أن توصلهن إلى الدير... عدنى يا "أحمد".. عدنى أرجوك ... لا تتخلَّ عنهن... عدنى..."

بكيت : "لا تخف لا عليك سنوصلهن سوياً يا أخى.. صدقنى".

ابتسم "ملاك" بأسى ثم قال: "طبعاً سنكون سوياً...سأكون معكم.. لن أرحل إلا معكم" ثم فتح عينيه عن آخرها وصاح: "أحمد" احذر.

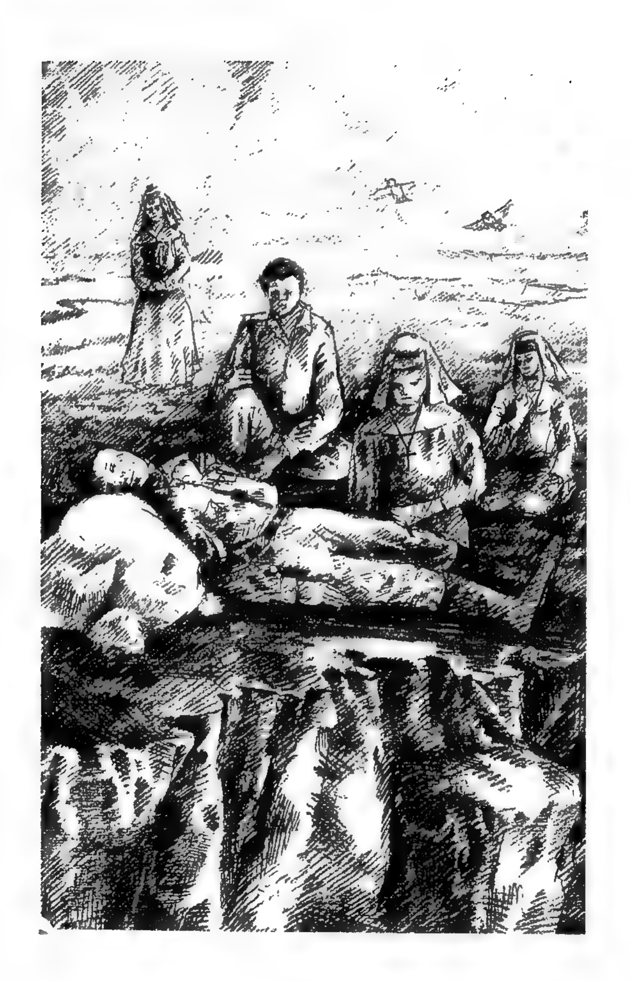
ما كدت ألتفت جهة نظره فإذا بجندى ضخم الجُثة... رهيب ينقض على صدرى من أعلى الصخرة. ألقى بى أرضاً. حاولت النهوض... حاولت المقاومة... كان جسده ضخم بشكل غريب. جلس فوق صدرى وقيد يدّى. وأخرج خنجر سلاحه (السونكى) ورفع يده لأعلى هامّاً* أن يغرسه فى قلبى بكل قوته... أغمضت عينى وكدت أقرأ الشهادتين... سمعت طلقاً نارياً قريبا... سقط الجندى الضخم على وجهى.. بجهد

- هاماً أن يغرسه: مريداً أن يغرسه.

أزحته.. لقد اخترق الطلق ظهره.. نظرت خلفه... لم أكن لأصدق... كانت الأخت "تريزا".. تقف وبيدها السلاح والدخان مازال يخرج منه.

إذن فلقد أنقذت الأخت "تريزا" حياتي كانت واقفة مشدوهة وكأنها تمثال... ثم مالبث أن سقطت على ركبتها وضمت كفيها على كتابها المقدس وبدأت تصلي. أسرعت مرة أخرى إلى "ملاك". كان راقداً في مكانه مبتسماً.. وقد أسلم الروح. بكيتُ... بكيتُ بكل ما لدي من قوة... بكت أمي معي.. سمعت صوتها في أعماقي يبكي... أخي وصديقي.. تجمعت الفتيات حول "ملاك" وأسجوا جثته ثم وقفن يتلون صلاتهن على روحة القديسة.. صممنا على دفنه. أردنا حفر الصخر. لكنه كان مستحيلاً... ما العمل فوجئنا بالأخت "ماري" تحمل حجرين صغيرين ثم تقترب وتضعهما بجوار رأسه.. أسرع الجميع والدموع في عيونهن... أسرعن في صمت بجمع الأحجار... وتم دفن "ملاك" بالأحجار الصلدة.. ثم خلعت الأخت "تريزا" صليبها ووضعته على رأس القبر. وأحضرت "مريم" نبات لست أدري من أين أحضرته ونثرته على القبر ثم جلس الجميع للصلاة. مر طائر أبيض وحام حول رءوسنا... وأصدر صوتاً واحداً خافتاً... ثم حام مرة أخرى... اختفى.

جلس الجميع في صمت... لم أستطع أن أمسك



دموعى المنهمرة مثلهن تماماً... الأخت "تريزا" ما زالت تصلى... الأخت "مارى" على الطريق البعيد من الربوة واقفة تحملق فى السماء... "مريم" تمزق شرائط من ثوبها لتربط يدى "نانسى" الصغيرتين اللتين مزقتهما الأحجار والصعود فوق الصخور المدببة.

وفجأة نهضت الأخت "تريزا" قائلة:

- "هيا... لا يوجد عندنا وقت.. يجب محاولة الوصول قبل الظلام."

كان فى صوتها وعينيها شىء من كبرياء غريب. إحساس غريب بالقوة. أطاعها الجميع.. ما زالت رأسى تطن وتؤلمنى كل جزء فيه. بل فى جسدى كله.. ولكنى يجب أن أتحامل حتى أستطيع إيصال الأمانة التى تركها معى أخى الشهيد "ملاك".. يجب إيصالهن إلى الدير بأى ثمن.

أصبح الآن الصعود أكثر صعوبة.. يجب السير على شفا هاوية سحيقة... ما العمل؟... لم تكل الفتيات من التسلق. اشتد صفير الرياح وفوتها صحت بالبنات:

- "تمسكن جيدا يجب التمسك بشىء قوى ثابت. لا تضعى قدمك الا على حجر ثابت ... لتتأكد كل منكن أين تضع قدمها."

كانت الكلمات الأخيرة تخرج منى وكأنها تأتى من



عمق سحيق يبدو أنني سأفقد الوعى.. كيف هذا؟ إن فقدت الوعى هنا.. سأسقط إلى هوة سحيقة.. أقرب صخرة كبيرة تحتنا تبعد حوالى عشرة أمتار أى ثلاثة أدوار.. ويحاصرنى الدوار.. تكاد يداى ترتخيان.. أكاد أستسلم.. لم أعد أستطيع أن أفتح عينىّ بالكاد أرى الأشياء.. هنا لم أستطع المقاومة.. سأترك يدىّ.. أريد أن أرتاح لم أستطع.. لم أعد أقوى.. إننى مرهق.. يجب أن أستريح..

فى اللحظه التى قررت فيها ترك يدىّ.. كى أسبح فى الهواء سمعت صرخة مدوية.. إنها "نانسى".. فتحت عينىّ.. أكاد أعود إلى رشدى.. رأيتها.. رأيت الصغيرة "نانسى" تسقط إلى أسفل وهى تصرخ.. انتبهت أو اننى ظننت ذلك.. أعتقد.. بل أكاد أجزم أننى رأيتها رأيت الأخت "مارى" تلقى بنفسها خلف "نانسى".. أغمضت عينى.. تمسكت جيداً.. لم أكن متأكداً إننى كنت فى كامل وعى أو أننى قد فقدت الوعى.. ولكننى أعتقد أننى رأيت الأُخت "مارى" تصعد الصخرة مرة أخرى وهى ممسكة بيد الصغيرة "نانسى".. رأيتها.. تخيلتها.. هل أنا فى وعىٍّ التام؟ هل ذهنى مشوش؟ هل عيناى المتورمتان اللتان لا أكاد أفتحهما لا تريان جيداً؟ رأيت الأخت "مارى" تصعد الصخور وكأنها تنزلق إلى أعلى وهى ممسكة بيد الصغيرة "نانسى".. حاولت أن أفتح عينىّ.. كانت

الأثنتان فى مكانهما.. لست أدرى إن كان هذا حدث أم أن خيالى وإرهاقى قد صورا لى ذلك.. فتحت عينىّ لأتاكد من الأخت "مارى".. لم أستطع أن أراها.. يبدو أن الشمس خلفها تماماً.. فقد رأيت هالة من نور قوى جعلتنى أغمض عينى مره أخرى ..وفى أعماق ذهنى يصل صوت صلوات الفتيات جميعاً بصوت واحد وترنيمة جميلة واحدة.. يبدو أننى أموت الآن. الهواء جميل.. الأصوات تصل القلب لست أدرى من أين تأتى.. أمى تحاول أن تزغرد.. إنها تضحك بملىء فيها.. ما زالت رائحة الجبن القريش "إنى جوعان يا أمى.. أريد أن آكل.. كلا أريد أن أستريح.. سأصلى المغرب أولاً.. حتى تعدى لى الطعام.. إنى ذاهب إلى المسجد..لقد بدأ المؤذن "الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدا رسول الله.. أشهد أن محمدا رسول الله.. حى على الصلاة.. حى على الصلاة.. حى على الفلاح.. حى على الفلاح.."

ما هذه الراحة العجيبة.. الآن سأترك يدى.. تركت يدى الصخور.. أمسكت بيدى أيدى قوية.. صوت عميق يقول.. "أعطنى يدك.. هيا.. تماسك.. أحسست أننى أعود مره أخرى.. من أين؟ فتحت عينىَّ كان جسدى كله يُرفع إلى أعلى من يدىّ.. شعرت كما لو كنت أطير فى الهواء.. أحلق إننى حقاً أحلق.. شىء ما يرفعنى لأعلى.. ربما هى.. الأخت مارى.. إنها حتماً

ترفعنى كما رفعت الصغيرة نانسى.. فتحت عينىّ كى أراها.. ما هذا؟ لم تكن الأخت "مارى".. لقد كانوا رجالاً.. فتحت عينىّ جيداً.. رجالاً لهم لحى طويله دققت النظر.. إنهم يلبسون السواد.. عدت مسرعاً حيث كنت.. من حيث لا أدرى.. أين أنا؟.

فتحت عينىّ.. فإذا بى أرقد على سرير فى غرفة صغيرة لها نافذة مرتفعة.. سقف الغرفة مرتفع هناك ضمادات على وجهى.. الألم قد زال معظمه.. أصغيت السمع صوت أجراس.. فتح الباب دخل رجل طويل.. يرتدى السواد.. له لحية كبيرة.. ابتسم لى.. دققت النظر نطقت بحروف واهيه*: "أين أنا؟"

أجاب بصوت هادىء:

- "أنت فى أمان.. أنت فى دير سانت كاترين"

أغمضت عينى لأنام ربت الرجل على كتفى فتحت عينى رأيت صليباً كبيراً يتدلى من صدره قال:

- "على فكرة نحن نشكرك على ما بذلته حتى أوصلت الراهبات بسلام"

ابتسم وأغلق الباب وخرج.. عدت أبحث عن الجبن القريش والخبز (البتاو) فى بيت أمى فى الريف فى أعماق ذهنى.

- بحروف واهية: ضعيفة.

فهرس

صفحة

جولة أولى ٣

أنقاض ٢٧

غنيمة ٥٢

وادى الذئاب ٦٤

مقابلة ٨٠

لقاء من نوع آخر ٩١

الـــديـــر ١١٨

هذه المجموعة القصصية من

خيال الكاتب

ولا علاقة لها بالأحداث التاريخية.

من السلسلات الأدبية

جزيرة الأحلام

شهاب سلطان

خلف خط النار

عبد الله السيد

عدالة الوحوش

شهاب سلطان

صدر عن مؤسسة بردى للنشر

سيرة الأميرة ذات الهمة

من التراث العربي

الجزء الأول

إعداد: عبد الله السيد

غلاف: نهلة نجاح

مراجعة لغوية: د. محمد سري



إذا كنت تحب المعلومات العلمية فتابع سلسلة "عم رشيد" ولا تنسى أن ترسل الأسئلة التى تحيرك إلى "عم رشيد" ليجيبك عنها فى الأعداد التالية:



"عم رشيد"
سلسلة علمية تصدر عن
بردى للنشر
بسعر ٢٢٥ قرشا

إذا أردت أن تتعرف علينا أكثر وأن نرسل إليك خطابات بكل ما نصدره أول بأول فإننا نرجو منك إرسال البيانات التالية إلينا:

الإسم : ....

تاريخ الميلاد: ....

المدرسة: ....

العنوان: ....

....

التليفون: ....

الهوايات: ....

نوعية الكتب التى تحب قراءتها: ....

....

ما هو الكتاب (أو الكتب) الذى قرأته من إصدارات بردى:

....

....

هل أعجبك أم لا ولماذا. ....

....

٢٠٠٠/٨٨٧٣

ISBN 977-333-046-X

خلف خط النار يواجه الإنسان مواقف مختلفة يظهر فيها معدنه وطباعه فنجد أن كل فرد يتصرف بطريقة مختلفة إزاء المواقف التى يواجهها.

من خلال مجموعة القصص القصيرة التى يقدمها لنا الكاتب "عبد الله السيد" نتابع تصرفات عدد من الأفراد فى مواقف مختلفة يواجهونها خلال الحرب لنرى كيف يتصرف كل فرد، وما هى القيم التى تحركه فى مثل هذه المواقف.

ولكن حتى خلال الحرب لا يجب علينا أن ننسى أننا قبل أى شيئ "بشر"، لذلك نقول لك "كن إنسان".





السعر ٦.٥٠ جم